الصين الآن

ممارسة الأعمال والأنشطة التجارية
في أكثر أسواق العالم قوةً ونشاطاً وحيوية

ن. مارك لام
جون ل. قراهام

نقله إلى العربية
نور الدائم بابكر عبدالله



Original Title

CHINA NOW

DOING BUSINESS IN THE WORLD'S MOST DYNAMIC MARKET

Authors:

N. MARK LAM

JOHN GRAHAM

ISBN-13: 978-0—07-147254-8

ISBN-10: 0-07-147254-1

Published by: The McGraw-Hill Companies, Inc., 1221 Avenue of Americas, New York, New York- 10020 (U.S.A.)

ح مكتبة العبيكان، 1431هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مارك لام، ن

الصين الآن./ ن مارك لام؛ جون ل قراهام؛ نور الدائم عبدالله.- الرياض 1431هـ

528 ص؛ 16.5 × 24 سم

ردمك: 5 - 020 - 503 - 603 - 978

1 - الصين - الأحوال الاقتصادية　　آ. قراهام، جون ل (مؤلف مشارك)

ب. عبدالله، نور الدائم (مترجم)　　ج. العنوان

ديوي: 330,951　　رقم الإيداع: 2012 / 1431

الطبعة العربية الأولى 1433هـ ـ 2012م

الناشر العبيكان Obeikan للنشر

المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية - طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: 4808654 فاكس: 2543314 ص.ب: 67622 الرياض 11517

موقعنا على الإنترنت

www.obeikanpublishing.com

متجر العبيكان Obeikan على أبل

http://itunes.apple.com/sa/app/obeikan-store

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان Obeikan

المملكة العربية السعودية - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

هاتف: 4160018 /4654424 - فاكس: 4650129 ص. ب: 62807 الرياض 11595

إلى أسرتي

مارك لام (Mark Lam)

إلى أساتذتي

توماس ر . وتروبا (Tomas R . Wotruba)

جون ج . ميرس (John G . Myers)

ريتشارد ب . باقوزي (Richard P . Bagozzi)

جون ج . قمبرز (John G . Gumperz)

روي أ . هيربيرقر ج ر. (Roy A . Herberger Jr.)

إدوارد ت . هول (Edward T . Hall)

وفيليب ر . كاتيورا (Philip R. Cateora) .

جون جراهام (*John Graham*)





شكر وعرفان

ثمـة أصـدقاء وزملاء كـثر وجب علينا شـكرهم، نظير ما قدمـوه لنا من مساعدة لإخراج كتابنا هذا إلى النور:

جـازون ديدريـك (Jason Dedrick)، برونويـن فريـر (Bronwyn Fryer)، جوانـا هـو (Joanna Ho)، فيفيان كيـو (Vivian Kuo)، وين وين لام (Wen Wen Lam)، ت. واي. لـو (T. Y. Lau)، مـارك ليملـي (Mark Lemly)، آنـدي ليانق (Andy Liang)، جيمسـ ماكـون (James McCoun) سـي. ت. تينـق (C. T. Teng)، جيمس تونق (James Tong)، كاثرين شين (Katherine Xin)، لاري وينق (Lary Wong)، دين يووست (Dean Yoost) وزونق شو بنق (Zhong Xue Ping).

وشكر خاص موصول إلى شارلس ليو (Charles Liu)، ومونتي ما (Monty Ma) لمساهمتهما في الفصلين العاشر والحادي عشر على التوالي.

كما لايفوتنا أن نزجي آيات الشكر والعرفان أيضًا إلى كل من جيل مارسال (Jill Marsal) وسـاندرا ديجكسترا (Sandra Dijkstra) اللذين أدركا ما بذلناه في هذا الكتاب من جهد متواضـع في وقت مبكر. وحبل الشـكر موصـول أيضًـا إلى جين قلاسر (Jeanne Glasser)، باتي أموروسو (Pattie Amoroso)، مورين هاربـر (Maureen Harper) ولوريـن لينشـ (Lauren Lynch) بدار ماكجرو – هيل (McGraw – Hill) لما قدموه لنا من مسـاعدة عظيمة، سـاهمت كثيرًا في تنقيح الكتاب وتحسينه بشكل رائع.

فالشكر والعرفان للجميع!





مُحتويات الكتاب

الموضوع | الصفحة











مكره في شانغهاي

عُجَّة دينفر، نقانق فيينَّا، مشويات لندن، حبوب بوسطن المحمصة وفطيرة بوسطن بالقشدة – يمكننا سرد أسماء مدن كثيرة اُستخدمت صفات وأسماء لغير الأعلام – ربما رغبت في ازدراد حلواك بـ (سلنق)(*) سنغافورة أو مانهاتان. وربما كان ساندي دينيس (Sandy Dennis) وجاك ليمون (Jack Lemmon) في فيلم (The Out – Of – Towner) من أهالي نيويورك[1]. وبالطبع، قد تكون أنت نفسك من سكان نيويورك.

لكن، ثمة مدينة واحدة فقط هي التي حظيت بذكر اسمها في معجم ويبستر (Webster›s Dictionary) كفعل – تلك هي شانغهاي. وفيما يلي ما ورد في المعجم عن معناها:

شانغهاي، فعل متعدٍّ (شانغهاي الصين، مشتقة من طريقة كانت شائعة في الماضي تستخدم لتأمين البحارة للرحلات التي تتجه إلى الشرق (1871م) وتعني: (1) وضع شخص على متن سفينة بالقوة، غالبًا بمساعدة مادة مسكرة أو مخدرة، ومن ثَمَّ إكراهه على الخدمة فيها كبحار، (2) وضع شخص بالقوة أو بالتهديد باستخدام القوة رهن الاحتجاز أو في مكان شبيه بالسجن، أو (3) وضع شخص بالخديعة والإكراه في موقف لا يحسد عليه [2].

ربما تتذكر ستان (Stan) وأولي (Ollie) اللذين تلقيا ضربة مدوية بمقلاة على رأسيهما أفقدتهما وعيهما، فسقطا أرضًا ليُحْتَجَزَا على متن سفينة بخارية

(*) السلنق: شراب مسكر (المترجم).

مثلما حدث للوريل (Laurel) وهاردي (Hardy) في حكاية (الشبح الحي). وبالطبع، تعرض الكثير من الإداريين المعاصرين للخداع في أثناء مفاوضاتهم مع نظرائهم الصينيين.

فلنستهل كتابنا هذا إذن بقصة شبيهة بتلك الحكاية، اتضح فيها بما لا يدع مجالًا للشك، لأحد الأشخاص التنفيذيين الأمريكيين أنه "أخذ على حين غرة فوجد نفسه في موقف لايحسد عليه" في أثناء مفاوضات تجارية على مستوىً عالٍ جرت في شانغهاي.

داخل حلبة السباق أو هكذا يبدو

ورطة بوول (Pole) داخل الشاحنة، الجلوس في مقعد السائق، حكايات تصف كلها ملابسات الأحداث التي حدثت لجيم بولسن (Jim Paulsen) في شهر يناير من عام 1995 م. ففي شهر مارس من عام 1994 م، عين جيم (Jim) أول رئيس لشركة فورد عبر تاريخها في الصين. وكانت أول مهمة له هناك هي الدخول في مفاوضات مع شركة شانغهاي لصناعة السيارات حول عمل تجاري مشترك. لكن مع الأسف، فشل بولسن (Paulsen) وسيارته الفورد (تورس) التي يروج لها للفوز بإعجاب الصينيين.

أما لماذا أثيرت تلك الضجة الصاخبة التي انطوت على كثير من الكيد في العلاقات الدولية والحسابات والتقديرات المشتركة الخاطئة حول سيارات الـ (GM) (البيوك) التي وطئت شوارع بيجينق لأول مرة؟ فاختلاف الموروث الثقافي هو مفتاح حل اللغز. ولنشرح هذا:

تعد شركة فورد للسيارات واحدة من أعظم شركات السيارات في العالم. فالكل يعرف شعارها الأزرق اللون البيضوي الشكل. وصحيح.. في الوقت نفسه الذي كان هنري فورد (Henry Ford) يجوب مدن الصين مروجًا لبضاعته،

كتبت بيرل بوك (Pearl Buck) حكايتها (الأرض الطيبة) عن الأقدام المكبلة في الريف الصيني في ثلاثينيات القرن العشرين.

على صعيد آخر، كان هنري فورد الثاني (Henry Ford II) أحد أوائل التنفيذيين الأمريكيين الذين التقوا دينق شاويبنق (Deng Xiaoping) بعد أن أعادت الصين فتح أبوابها الاقتصادية عام 1978 م.

بجانب هذا، تحركت فورد (Ford) في المنطقة المحلية أسرع مما فعلت (GM). وعند بداية السباق كان لفورد ثلاثة مشروعات تجارية مشتركة في الصين، في حين كان المشروع الرابع قيد الإنشاء.

مع أن شركة السيارات الأمريكية/ كرايسلر، كانت تنتج سيارات الجيب في بيجينق لنحو عشر سنوات، إلا أن سيارات شركة شانغهاي لصناعة السيارات، كانت أول إنتاج رئيس يتم بتمويل من الشركات الأمريكية. إذ كانت شركة شانغهاي الأضخم والأوفر ربحًا بين سائر شركات تصنيع السيارات الصينية. فقد نجحت في تصنيع سيارات الأوديز بتمويل مشترك مع فولكس واجن. وخطط مصنع شانغهاي لإنتاج نحو (100.000) سيارة و(200.000) شاحنة في السنة، باستثمار تقدر قيمته ببليوني دولار أمريكي.

بدأت شركة فورد محادثات سرية مع مسؤولي شركة شانغهاي استمرت بعض الوقت، غير أن تسارع وتيرة الأحداث في واشنطن، العاصمة الأمريكية، قد حمل المفاوضات إلى العلن في الدولتين. وفي اليوم السادس من شهر فبراير لعام 1995م، فرضت إدارة كلينتون (Clinton) ضرائب باهظة على الصين كعقوبات تجارية بسبب انتهاكاتها المستمرة لاتفاقيات حقوق الملكية الفكرية. ففرضت تعرفة جمركية قدرها (100%) على (1.08) بليون دولار أمريكي، قيمة بضائع تشتمل على هواتف نقالة، مستلزمات رياضية ومصنوعات بلاستيكية قادمة من المملكة الوسطى (الصين).

أمـا بيجينـق فلم تتأخـر، إذ جاء ردهـا مضـاعفًا. ففرضـت في البداية ضـرائب انتقامية على الأقراص المضـغوطة، ألعاب الفيديو، الأفلام، السجاير والمشـروبات الكحوليـة التي تأتي مـن الولايات المتحدة الأمريكية إلى الصـين. ثم أعلنت من جهة أخرى تعليق كل المحادثات مع صـانعي السيارات الأمريكيين بشـأن الاسـتثمارات المشـتركة في الصـين. وحـددت العاصـمتان (واشـنطن وبيجينق) اليوم السادس والعشرين من شهر فبراير موعدًا أخيرًا للمفاوضات، تدخل بعده العقوبات حيز التنفيذ.

في اليوم الرابع عشـر من الشهر نفسه، أخطر لو جيان (Lu Jian)، رئيس شـركة شـانغهاي لصـناعة السـيارات، شـركتي فورد و(GM) لتقديم عروض أسـعارهما النهائيـة "بنهاية الشـهر". وكانت محادثات شـركة شـانغهاي مع شـركة فورد قبل الرابع عشر من شـهر فبراير، قد اتسمت بالدفء والحميمية والثقة المتبادلة.

بجانب هذا وذاك، كانت شركة شانغهاي تتفاوض مع الشركات اليابانية في الوقت ذاته. إذ صـرح السيد لو (Lu) في مقابلة له مع صحيفة (Wall Street): "لقد أعلنت شـركة تويوتا اسـتعدادها للتو بسبب نذر الحرب التجارية المرتقبة مع الولايات الأمريكية المتحدة... وقد أخبرتهم بكل صراحة أننا في الوقت الذي نأمل التعاون معهم، سوف نواصل مفاوضاتنا مع الأمريكيين. وعليه، تقف تويوتا الآن متوثبة خلف الخط الأمامي [٨]".

وحقًـا، ليس مهمًا أن تكـون تويوتا هي التي مانعت بسـبب عدم رغبتها في إتاحة المجال للصـينيين للاطلاع على تقنيتها، أو أنها حاجة الصـينيين الملحة لتأكيـد مصـداقيتهم في محادثاتهـم مع الأمريكيين بشـأن السـيارات في إطار حملة التهديدات والتهديدات المضادة. ليس مهمًا أن يكون هذا أو ذاك هو الذي أدى لهذا الموقف. وتبقى الحقيقة أن الحالتين قد عملتا معًا لدفع فورد و(GM)

للخط الأمامي في واجهة الأحداث. لكن، أرجو الانتباه، أضاف السيد لو (Lu) معلقًا في الصحيفة: "كل شيء في حلبة السباق ماعدا إمكانية حدوث الحرب التجارية. فإن اندلعت حرب تجارية فسوف يؤجل كل شيء، وربما ألغي تمامًا. أما إن لم تندلع حرب تجارية، فساعتئذٍ أستطيع أن أخبركم أننا سوف نختار فورد أو (GM)».

أخيرًا: نحسب أن السيد لو (Lu) لم يتحدث عن الشركتين الأمريكيتين بناءً على ترتيب حروفهما حسب الترتيب الأبجدي.

جيم بولسن (Jim Paulsen) في مقعد السائق:

وعليه، بحلول منتصف شهر فبراير، كانت فورد قد احتلت مركز الصدارة. فيما سلمت قيادتها لجيم بولسن (Jim Paulsen). وبعد عدة زيارات لكل من الممثل التجاري بالولايات المتحدة الأمريكية ووزارتي التجارة والخارجية في واشنطن، العاصمة، توقف بولسن (Paulsen) وزوجته في كاليفورنيا الجنوبية لمدة أسبوعين، يقضيهما بولسن في التدريب على فن التعامل مع ثقافة الآخرين بمدرسة ميراج التجارية التابعة لجامعة كاليفورنيا، حيث التقينا لأول مرة. فأخبرنا جيم (Jim) بمدى ما أصابه من رعب وما يحتاج إليه من أسس بسبب جهل كل من تحدثوا إليهم من المندوبين الذين عينهم كلينتون (Clinton) بالصين وافتقارهم لأي نوع من المعرفة عنها.

كان جيم (Jim) قد اهتدى إلينا عن طريق مجموعة من الأشخاص تعمل بمركز شركة فورد للتطوير الإداري بديترويت التي نصحته بنا، حيث كنا نعمل عدة سنوات، أسدينا خلالها النصح وقدمنا المشورة ودربنا الإداريين لتهيئتهم للقيام بمهمات أعمالهم التجارية في علاقاتهم مع اليابانيين. وقد خضع نحو ألفي إداري منهم لبرنامج تدريب لمدة ثلاثة أيام عن فن التفاوض مع اليابانيين[4].

أمـا وقـد تعلق الأمر بالصـين، فهو شـيء جد مختلف. ولهذا قضـى جيم (Jim) وزوجتـه معظـم تلك المـدة بالجامعة في العمل مع زميلتنا كاثرين شـين (Katherine Xin) التي كانت نشـأتها الأصـلية في بيجينـق حيث ولدت، وترأس الآن كرسي ميشلان للقيادة وإدارة الموارد البشرية بالمدرسة الصينية الأوروبية العالمية التجارية في شانغهاي، التي تعد أفضل مكان في العالم لتدريب الأشخاص الذين يتسنمون هرم السلطة الإدارية بالشركات التي تعمل في الصين على فن التعامل مع ثقافة الآخرين.

قدم جيم بولسن (Jim Paulsen) من الغرب الأوسط بالولايات الأمريكية المتحدة، وهو رجل ذكي، صـاحب شخصية بارعة لطيفة، تتحلى بأخلاق فاضلة ونفس مرحة وروح وثابة. اكتسب الهندسـة بالتدريب والممارسة، التحق بشركة فـورد منذ مدة طويلة، فسـاهم في تأسيس فروع لها في كثير مـن بلدان العالم كالمكسيك، جمهورية تشيكوسلوفاكيا، بولندا، وفرنسا.

لكن مع ذلك، كانت دهشـتنا عظيمة عندما أدركنا أنه لايمتلك أي رصـيد من التجارب السـابقة في الحياة بعيدًا عن أحضـان الوطن. وقد قضى الثمانية عشـر شهرًا الأخيرة في السـفر بين الولايات الأمريكية المتحدة والصين، عاملًا في شركة شانغهاي لبيع السيارات وغيرها من الشركات الأخرى.

على صـعيد آخر، يذكر أن فورد قد نجحت في تعليق الجرس عندما أعلن رئيسـها التنفيـذي ألكس تروتمان (Alex Trotman) أن الشـركة سـوف ترعى برنامـج بحث يعنى بتطوير سـيارات تعمل بمكائن صـديقة للبيئـة بالتعاون مع المعهد الصيني الأكاديمي للعلوم.

بحلول السـادس عشـر من شـهر فبراير، سـلم ألكس (Alex) سـونق جيان (Song Jian)، وزيـر التقنية والعلوم في حكومة الصـين، مجموعة مفاتيح لسـيارة فورد (تورس) جديدة ورائعة، مزودة بماكينة تعمل بخليط من الجازولين والميثانول.



في تلك الأثناء، فترت الحركة التجارية وبدأت تنحسر شيئًا فشيئًا. مما حدا بأحد النقاد للتعليق قائلًا: لقد أتى التهديد بالعقوبات التجارية أكله على الجانبين، إذ نجح في محاربة القرصنة. في حين أن تطبيق مثل تلك العقوبات ووضعها حيز التنفيذ ما كان ليثمر شيئًا لأي منهما على الإطلاق.

بمعنى آخر: ساعدت لهجة التهديد تلك على توحيد القوى السياسية الداخلية في كل من الصين والولايات الأمريكية المتحدة على حد سواء، لكن لم يكن أي من البلدين يستطيع تحمل تكاليف مثل تلك الحرب التجارية التي طالما لوح بها كل منهما في وجه الآخر. وعليه، فقد تمت تسوية القضية بنهاية شهر فبراير، لكن بالطبع، لتعود من جديد في العام القادم.

من جهة أخرى، استمر التنافس بين الشركات الأمريكية لصناعة السيارات على أشده. فهذه شركة (GM) تعلن على أعقاب إعلان شركة فورد الخاص بتصنيع سيارات صديقة للبيئة، رغبتها في نقل التقنية إلى المعاهد الصينية. فساهمت في شهر مارس بمليون ين (120.000 دولار أمريكي يومئذٍ) لتأسيس معهد دلفي لتقنية أنظمة السيارات بجامعة تسنقهوا الأرستقراطية في بيجينق. آه، بالمناسبة، كانت تسنقهوا هذه الكلية الأم التي تخرج فيها رواد الإداريين الصينيين. وفي الصين، للكلية الأم أهميتها وتأثيرها. وهي أهمية وتأثير أكثر بكثير جدًا مما يستطيع أي غربي أن يتخيلهما. فقد كان التنظيم في تسنقهوا أول المشروعات الكثيرة التي تم التخطيط لها لتشكل أجزاء مهمة من معهد شركة (GM) ومعمل أبحاثها.

كان جيم بولسن (Jim Paulsen) ماهرًا بشكل خاص في إدارة المفاوضات بمكتب فورد الرئيس في مقرها الأساس في موطنها الأصلي. وكان جاك ناصر (Jacques Nasser) حينئذٍ نائب رئيس قسم التطوير في ديترويت قد رفض إجراء تعديل في سيارات الفورد من طراز (تورس) التي تصدر للأسواق

الصينية. ولأن معظم سائقي تلك السيارات هناك من مواطني الصين، كان لا بد من تعديل حجم كابينة السائق بحيث يستفاد من فائض المساحة لصالح المقاعد الخلفية — وهو تعديل مكلف دون أدنى شك.

لأن بولسن (Paulsen) كان يدرك جيدًا عدم استعداد المسؤولين في ديترويت للقيام بمجازفة كتلك، تجاوز ناصر واتجه مباشرة إلى ألكس تروتمان (Alex Trotman) فكسب المعركة، غير أن الحرب استعرت من جديد بحلول فصل الصيف.

انضمام شيرلي يونق (Shirley Young) إلى المفاوضات:

كان مفتاح حل لغز السباق يكمن في ضم شركة (GM) لشيرلي يونق (Shirley Young) إلى فريق التفاوض والزج بها في حلبة السباق.

أجل.. بإمكان النساء أداء دور مميز في مفاوضات الأعمال العالمية كما أثبتن كثيرًا. فلم يقتصر جهد السيدة يونق (Young) على وضع تصور خاص لعملية التسويق لفريق شركة (GM) فحسب، بل تعداه لخلق علاقات تجارية واسعة وراسخة. فهيا ننظر لقائمة إنجازاتها:

التحقت السيدة يونق (Young) بشركة (GM) عام 1988م، كنائب لرئيس تطوير قسم تسويق السلع الاستهلاكية. وقد عملت مستشارة للشركة منذ عام 1983م. كما عملت مع طائفة واسعة من مختلف شركات الاتصال والتسويق، إذ تولت التخطيط والإدارة بوصفها رئيسة لشركة (Grey Strategic Marketing). كما خدمت بصفتها عضوًا في مجلس إدارة شركات برومس Promus Companies)، (Bell Atlantic) وشركة بومبي (Bombay Company). وشغلت منصب نائب رئيس اللجنة المشرفة على سوق الأوراق المالية (البورصة) بنيويورك، التي تم اختيار أعضائها بالتعيين. كما كانت عضوًا بمجلس الأعمال الاستشاري بالمكتب التجاري للتنمية العالمية في وزارة الخارجية الأمريكية.

تسنمت رئاسة اللجنة المئوية التي تضم عضويتها مجموعة من الإداريين الوطنيين في كل من الصين والولايات الأمريكية المتحدة. وكانت بجانب هذا كله، عضوًا في مجلس إدارة فرقة شانغهاي الموسيقية (الأوركسترا السمفونية) (التي أنشئت بعد تبرع شركة (GM) بمائة وخمسة وعشرين ألف دولار أمريكي).

أما في مجال التعليم فقد شغلت منصب الأمين العام بكلية (Wellesley) وأكاديمية (Philips) ومركز (Interlochen) للفنون والآداب، بالإضافة إلى عملها عضوًا في مجلس إدارة الزمالة بمدرسة هارفارد التجارية.

تقديرًا لجهودها، فقد منحت جوائز عديدة، وحصدت العديد من الأوسمة والنياشين، كما منحها اتحاد الدعاية والإعلان بالولايات الأمريكية المتحدة لقب (امرأة العام) دون منازع، وفعل مجلس التخطيط الأمريكي – الصيني الشيء ذاته... أجل، فهي شديدة الصلة والارتباط بالولايات الأمريكية المتحدة.

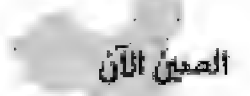
يبدو أن السيدة يونق (Young) قد ورثت تلك الشخصية الإدارية الطموحة من نشأتها الصينية، فقد ولدت في شانغهاي، حيث ما زال يقيم أقرباؤها. وتتحدث المندرينية بطلاقة[*]. أما والدها كلارنس كونقسون يونق (Clarence Kuangson Young) الذي قتله اليابانيون في أثناء الحرب العالمية الثانية، حيث كان يشغل منصب القنصل العام لبلاده لدى الفلبين، فلا يزال بطلًا في كل من الصين وتايوان، إذ يتم إحياء ذكراه سنويًا في حرم جامعة تسنقهوا ببيجينق بوصفه واحدًا من ألمع روادها. في حين كان زوج والدتها سفيرًا لبلاده في كل من الولايات الأمريكية المتحدة، المملكة المتحدة وفرنسا. أجل.. كان يتمتع بعلاقات اجتماعية واسعة.

(*) المندرينية: اللغة الصينية الشمالية التي كانت لغة البلاط والطبقات الرسمية في عهد الإمبراطور، وتمثل اليوم اللغة الصينية الرئيسة المنطوق بها في نحو أربعة أخماس الصين (المترجم).

لقد عينت شركة (GM) للسيارات السيدة يونق (Young) مستشارًا لرودلف سشليز (Rudolph Schlais) نائب رئيس فرع الشركة بالصين، الذي سبق له أن فاوض حول تأسيس ثلاثة مشروعات تجارية مشتركة هناك. كما احتفظت بها الشركة في الوقت نفسه مديرةً للعلاقات لنائب رئيس قسم التسويق بمقر الشركة بديترويت. وهكذا صار دورها أكثر من تابع لسشليز (Schlais). إذ عليها الآن الترويج لنقل التقنية إلى الصين من جهة، والعمل على نقل خبرة التسويق من الصين من جهة أخرى.

صحيح.. للسيدة يونق (Young) شخصية احترافية ألمعية، لكن ربما كان ما تتمتع به من رصيد هائل من العلاقات الواسعة المتشعبة، وأسلوب بارع في إدارة المفاوضات وتنظيمها، أهم من هذا وذاك. إذ كانت ترتب بين الربيع وأواخر الصيف زيارات لعدد كبير جدًا من الإداريين الصينيين والشخصيات الصينية الرفيعة إلى ديترويت لدراسة شركائهم المحتملين. ومن ثم تعمد لحشد أكثر من ألف موظف من مستخدمي شركة (GM) من الصينيين والأمريكيين على حد سواء لاستقبال أولئك الضيوف، وتشكيل لجنة مشتركة لإسداء النصح وتقديم المشورة للشركة حول علاقاتها مع الصين. وبالمقابل، نجحت نجاحًا منقطع النظير في جَرِّ قدم كبار الإداريين الأمريكيين إلى شانغهاي.

فمثلًا، قام جون سميث (John Smith) الرئيس التنفيذي بشركة (GM) بثلاث رحلات إلى شانغهاي في أثناء فترة المفاوضات. كما سافر خمسة من بين السبعة إداريين الأعلى مرتبة في شركة (GM) إلى شانغهاي في الفترة بين شهري سبتمبر وأكتوبر في تفانٍ وإخلاص غير مسبوقين في تاريخ التواصل الإداري بين الشركات العالمية. وبجانب هذا كله، امتد جهد السيدة يونق (Young) لترتيب رحلة لكل الموظفين الإداريين بشركة شانغهاي للسيارات إلى البرازيل لكي يتسنى لهم الاطلاع عن كثب على العمليات التقنية المتطورة



لشركة (GM) هناك؛ لأن العاصمة البرازيلية (ريو دو جانيرو) تتمتع بجو رائع وطبيعة خلابة في فصل الصيف!

لقد أدركت السيدة شيرلي يونق (Shirley Young) جيدًا أنه لا شيء يعدل ممارسة الأعمال التجارية عبر مختلف بلدان العالم، إذ تقول دائمًا: ليست الشعوب هي التي تتحدث إلى بعضها بعضًا، ولا الشركات، بل الأشخاص هم الذين يفعلون ذلك، فيفاوض بعضهم بعضًا. أي أنه لا يوجد غير أعمال تجارية بين الأفراد أنفسهم، خاصة عندما يتعلق الأمر بالصينيين، إذ تعد الاجتماعات المباشرة وجهًا لوجه وعلاقات الصداقة بين الناس على المستويات كافة، عناصر النجاح الأساسية لأي مفاوضات.

المرحلة الأخيرة في حلبة السباق:

في الخامس والعشرين من أغسطس، حل فوقن كوشكاريان (Vaughn Koshkarian) محل جيم بولسن (Jim Paulsen) رئيسًا لشركة فورد في الصين. ويروي سجل حياته أنه قادم من شمال غربي الولايات الأمريكية المتحدة، حاصل على درجة الماجستير في إدارة الأعمال، ويعمل بشركة فورد منذ ثلاثة وثلاثين عامًا، قضى معظمها في إدارة الموارد المالية للشركة. وقد خدم في أثناء ثمانينيات القرن الماضي في كل من اليابان وأوروبا.

وصحيح.. عزز (Koshkarian) المهنة بقدر كبير من التجربة العالمية؛ أكثر بكثير جدًّا مما فعل سلفه جيم (Jim). غير أنه يعوزه أي نوع من خبرة محددة من العمل في الصين. كما تنقصه مهارات اللغة الصينية.

وكان (Jim Paulsan) قد خدم تسعة عشر شهرًا في بيجينق قبل أن يتقاعد عن العمل. وحسبما أفاد فإنها في الواقع لم تزد على كونها سبعة أشهر فقط في بيجينق، ستة أشهر في شانغهاي، وستة أشهر على متن الطائرات متنقلًا

بينهمــا. وهكذا نجد أن قضــية تغيير الرؤســاء الإداريين التي طالما ســلمت بها شركة فورد، قد أودعت طي النسيان في مضمار السباق.

تحليل أحداث فترة ما بعد السباق:

في الحادي والثلاثين من شــهر أكتوبر، وقعت كل من شــركة (GM) وشركة شــانغهاي للسيارات اتفاقهما التجاري في ديترويت. وكانت الخطط تهدف لإنتاج مائة ألف سيارة من سيارات البيوك الملكية الفارهة، متوسطة الحجم بنهاية عام 1997م، يتم تجميعها في مصــنع شانغهاي الجديد الذي أنشئ بتكلفة بليون دولار أمريكي. كما هدفت الخطط في النهاية لإنتاج شاحنات النقل الصغيرة المقفلة.

في أثنــاء المفاوضــات، تعهــدت كل من شــركتي فــورد و(GM) باســتثمار ملايين الدولارات في تأســيس معاهد تقنية ومصــانع قطع غيار. لكن في الوقت الــذي أعلــن المتحدث باســم شــركة فورد في بيجينق خســارة الشــركة صــفقة ســيارات (التورس) الحديثة، على الرغم من التغييرات الهندسية التي فرضها جيــم بولســن (Jim Paulsen) رغم بيروقراطية الإداريــين بمكتب ديربورن، في ذلك الوقت، وعلى الرغم مما تمتاز به سياراتها من تقنية متطورة، أبدت شركة (GM) اســتعدادها لتقديم التقنية عن طريق شركتي (Hughes) للإلكترونيات وشــركة وحدات الأنظمة الإلكترونية التابعتين لها، وهي تقنيات حاسوبية عالية ومتشعبة، تعجز شركة فورد عن مضارعتها.

في مذكراته التي نشرها عبر مجلة (التايم) كتب جيم بولسن (Jim Pulsen): "لقد بذلنا قصارى جهدنا لمعرفة الكيفية التي كانوا يتخذون بها قراراتهم، غير أنه لم يكن لدينا العدد اللازم من الموظفين الذين يتحدثون اللغة الصــينية لإقامة علاقات وطيدة واتصــال مباشر مع المسؤولين في شــانغهاي. أجل.. كنا نلعب لعبة القط والفأر، لكن بموارد قليلة ووســائل محدودة [5]"، وفي السياق ذاته، أضاف

وين بووكر (Wayne booker) ، رئيس شـركة فورد في الدول الآسيوية المطلة على المحيط الهادي ومدير جيم بولسن (Jim Paulsen) : "إنك لن تستطيع فهم سوق أجنبي أبدًا ما لم تضم هيئة موظفيك أشخاصًا ذوي كفاءة عالية وتجربة أكيدة من أبناء البلد المعني".

أين كان لورنس ونق (Lawrence Wong)

عندما كنا في أشد الحاجة إليه؟

لا شـك في أننا نتفق مـع جوهر ما ذهب إليه بووكـر (Booker) في تحليله لأحداث فترة ما بعد السـباق، غير أننا نود أن نضـيف: "يجب أن يكون أولئك الموظفـون مـن ذوي الخـبرة والكفاءة من مواطنـي البلاد المعنيـة"، على قمة سـلطة صـنع القـرار في الاسـتثمارات الأمريكيـة الأجنبية أو قريبًـا منها على الأقل، خاصة عندما يتعلق الأمر بالعمل في الصين.

لا شـك أيضًـا في أن جيـم بولسـن (Jim Paulsen) كان إداريًـا ناجحًا في شـركة فورد بكل ما للنجاح من معنىً، غير أنه، ببساطة شديدة، كان يفتقر إلى مفاتيح النجاح في الصين.

صحيح.. التدريب أساس النجاح، لكن لا يكفي أسبوعان فقط من التدريب على التعايش مع ثقافات الآخرين لتعويض نقص تجربة الحياة في الخارج مهما كانـت نوعية ذلك التدريب وجودتـه، بحيث يؤهل الشـخص المعني لتولي زمام الإدارة هنـاك.

بمعنىً أكثر دقة: لم تكن شـركة شانغهاي للسـيارات أو شركة (GM) هي التي أخطأت في توظيف جيم بولسن (Jim Paulsen) في المكان غير المناسب، إذ يعزى السبب الرئيس لإدارة شركة فورد نفسها في ديترويت.

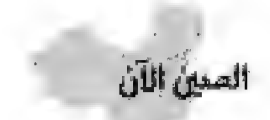
الشيء العجيب من وجهة نظرنا أن الشخص المثالي المطلوب للمهمة موجود أساسًا ضمن موظفي الشركة. وعليه، يعزى سبب التخبط هنا لأولئك المسؤولين في ديربورن الذين فشلوا في اختيار لاري ونق (Larry Wong) ليكون أول رئيس لشركة فورد في الصين. ولنتبين ذلك، هيا نلقي نظرة على شخصية (Wong) عام 1995م:

كان الدكتور لورنس ت. ونق (Lawrence T. Wong) يومئذ في ربيعه الثاني والثلاثين، يعمل في شركة فورد إداريًا في الأعمال التجارية المشتركة ومهندس أبحاث. حصل على درجة الدكتوراة في هندسة الفضاء من جامعة ولاية ميتشغان في أثناء عمله مع الشركة. وتذكروا أن شركة شانغهاي للسيارات مهتمة بالتقنية التي يمتلك ونق (Wong) ناصيتها. كما يمتلك بجانب هذا، المعرفة والقدرة اللازمتين لإقامة العلاقات في الصين وتوطيدها. وبسبب نشأته هناك، يتقن اللغة الصينية الرئيسة التي يتحدثها نحو (80%) من المواطنين، كما يجيد اللهجة الكانتونية[*].

ترأس شركة فورد في تايوان أحد عشر عامًا، سيطرت خلالها فورد على سوق السيارات هناك بفضل شخصيته الإدارية وشبكة العلاقات الواسعة التي تمكن من تعزيزها. فانتخب رجل الأعمال الأول في تايوان لعام 1994م.

ربما كان وضع ونق (Wong) الحالي هو أفضل معيار لتقدير ما يتمتع به من كفاءات. إذ كلف عام 1996 م، بإدارة ما كان يطلق عليه (شركة مواصلات أخرى) — نادي هونغ كونغ للفروسية، حيث عين أول رئيس صيني (إثني) لرئاسة أهم سباق خيل في العالم. ولك أن تتخيل ذلك إذا أدركت أن الدخل السنوي لنادي هونغ كونغ للفروسية، يبلغ اثني عشر بليون دولار أمريكي. أجل.. اثني عشر بليون دولار.

(*) الكانتونية: اللهجة الصينية التي ينطق بها في مدينة كانتون وما حولها، وكانتون مدينة في الجزء الجنوبي الشرقي من الصين. سكانها: (3.500.000) نسمة (المترجم).



يعاد بليون ونصــف بليون دولار منها لأهالي هونغ كونغ في شـكل ضرائب، تشــكل (11%) من إجمالي عائدات ضــرائب الجزيرة. وبالإضافة لهذا، يتبرع النــادي بنحــو مائة وثلاثين مليون دولار ســنويًا للجمعيــات الخيرية. فقد تبرع مثلًا بثلاثمائة مليون دولار لتشـييد جامعة هونغ كونــغ للعلوم والتقنية التي تعد اليوم من أشهر جامعات آسيا وأكثرها رقيًا وتطورًا.

الســؤال الذي يطرح نفســه هنا بشدة: لماذا فشلت شـركة فورد في اختيار لاري ونــق (Larry Wong) لكــي يرأس فريقها في المفاوضــات في المقام الأول؟ كيف يمكن أن نفهم ارتكاب شركة كشركة فورد التي تعد إحدى أفضل الشركات الأمريكية العالمية خطأ كهذا؟ سوف نجيب عن هذه التساؤلات وغيرها كثير في الصفحات التالية.

أخيرًا: كخاتمة لما سبق أن أوردناه، نستطيع أن نعبر عن مدى سعادتنا بعودة فورد إلى رشدها لتعين في شهر يناير من عام 1998 م، مديرًا صينيًا وثنيًا في أعلى هرم ســلطتها الإدارية في بيجينق. إذ حل مي وي شــنق (Mei Wei Cheng) محل فوقن كوشــكاريان (Vaughn Koshkarain) رئيسًا إداريًا وتنفيذيًا في الوقت نفسه لشــركة فورد في الصين. في حين عين كوشــكاريان (Koshkarain) مديرًا تنفيذيًا للشركة في دول آسيا المطلة على المحيط الهادي ليصير فيما بعد رئيسًا لها.

كان شــنق (Cheng) يشــغل منصب نائب رئيس شــركة جنرال إليكتريك للأدوات الكهربائية في هونغ كونغ ومديرها الإقليمي.

أخيرًا، بعد طول انتظار، توصلــت شركة فورد لعقد اتفاق تجاري مناصفة (50% إلى 50%) مع شــركة شــونغكوين شانقان للســيارات التي تعد ثالث أكبر شــركات تصنيع الســيارات في الصــين، لإنتاج خمسين ألف ســيارة صغيرة في محافظة سيشــوان، جنوب غربي البلاد. لكن مع ذلك، لا تزال فورد تئن بسبب ما أصابها من جرح في شانغهاي.

بحلول عام 2005 م، تمكنت سيارات (GM) من خطف ريادة السوق من شركة سيارات فولكسواجن المتحدة، ولا تزال السيارات الأكثر مبيعًا من إنتاج شركة فورد في الصين بنسبة 3: 1 (665.000 إلى 220.000 سيارة).

الخلاصة:

لقد أدرجنا شانغهاي في مقدمة كتابنا لسببين إضافيين؛ إذ ينطوي استخدامنا للمصطلح على عاملين رئيسين عن القرن الحادي والعشرين في الصين. الأول: شانغهاي هي المكان الذي شهد الحدث – كما أنها تمثل محور النشاط التجاري في شرقي آسيا. الثاني: شانغهاي تختلف عن بقية أجزاء الصين. فقد ناقشنا في الفصول من الحادي عشر حتى الخامس عشر، بشيء من التفصيل، مدى اختلاف أساليب المفاوضات وأنظمة الأعمال التجارية بين مختلف أقاليم الصين العظيمة. أما بقية الكتاب فقد قسمناها إلى خمسة فصول. اشتملت الفصول من الثاني حتى الخامس على الخلفية التاريخية، الثقافية والتنظيمية/ القانونية الضرورية التي تحكم بيئة التجارة الأمريكية/ الصينية. في حين ركزنا في الفصول من السادس حتى العاشر على جوهر الاختلافات في أساليب المفاوضات التي غالبًا ماتثير المتاعب عندما يلتقي الأمريكيون نظراءهم الصينيين حول مائدة المفاوضات. أما الفصول من الحادي عشر حتى الخامس عشر، فقد اهتمت بالاختلافات الإقليمية كما سبقت الإشارة آنفًا. وتناول الفصلان السادس عشر والسابع عشر، موضوع الخلاف حول حقوق الملكية الفكرية المثير للجدل باستمرار في الصين. واستشرفنا في الفصل الثامن عشر مستقبل العلاقات التجارية الأمريكية/ الصينية. وبالمناسبة، ليست مجرد صدفة محضة أن يجيء كتابنا هذا مشتملًا على ثمانية عشر فصلًا. فالرقم ثمانية (أو أي رقم آخر ينتهي به) يعد في



الثقافة الصينية رقم حظ سعيد جدًا. إذ يفيد حسب لفظه باللغة الصينية، معنى النجاح والازدهار الاقتصادي.

وعليه، لا بد أن يساعدك اطلاعك على هذا الكتاب الذي يتألف من ثمانية عشر فصلاً، على تحقيق النجاح والازدهار الاقتصادي في مغامراتك واستثماراتك التجارية في المملكة الوسطى.



الهوامش:

1 - فيلم قولدي هاون (Goldie Hawn) وستيف مارتن (Steve Martin) الذي تم أداؤه عام 1999م، بعد تطوير نسخته الأصلية التي أداها دينيس (Dennis) وليمون (Lemmon) عام 1970م.

2 - قاموس ميريام – ويبستر (Merriam -Webster) الخاص بطلاب الكليات، الطبعة الحادية عشرة (Springfield,MA,Merriam-Webster, 2002).

3 - جوزيف خان (Joseph Khan) "خطط الشركات الصينية لصناعة السيارات لجذب شركة (Ford)، أو (GM) كشريك للعمل في الصين" صحيفة الـ (Wall Street) العدد الرابع عشر من فبراير، 1995م، ص 18.

4 - اشتمل البرنامج في الحقيقة على ملابسات المفاوضات وتسجيلها على أشرطة تلفازية، وقد تم عرض المادة باستخدام التصميم الذي وصفه جون قراهام (John Graham) في كتابه مع فيليب كاتيورا (Philip cateora) (التسويق العالمي)، الطبعة الثالثة عشرة. ماكقرو– هيل (McGraw- Hill) 2007م.

5 - فرانك جيبني، ج ر. (Frank Gibney ,Jr) "لقد حثت ديترويت الخطى في الطريق بتخبط شديد. وأخيرًا، رهنت أكبر ثلاث شركات أمريكية لصناعة السيارات مستقبلها بأكثر الأسواق العالمية احتمالاً لتحقيق الربح في سوق السيارات. فهل يا ترى يستطيعون التفوق على اليابانيين؟" صحيفة التايم العالمية، الخامس عشر من يوليو، 1996م، ص 28 وما بعدها.



الجزء الأول

الخلفية الأساسية للمفاوضات
مع رجال الأعمال الصينيين





تاريخ الشعب الصيني وثقافته

هنالك نحو خمسة آلاف سنة من التاريخ الصيني لكل مهتم به دراستها. وفي واقع الأمر، سبق أن نصح جيم هودقسون (Jim Hodgson)، سفير الولايات الأمريكية المتحدة السابق لدى اليابان، كل من ينوي السفر إلى بلاد ما لأغراض تجارية، بضرورة الاطلاع على الجانب المتعلق بها في الموسوعة على الأقل.

نحن إذ نتفق هنا مع السفير فيما ذهب إليه، نرغب في تقديم هذا الفصل كمقبلات لوجبة عامرة تشتمل على كل ما لذ وطاب. وربما كان ما نقدمه فيها من خبز محمص مفروش بالجبن أو الكافيار، كافيًا لمساعدتك، حتى لا تبدو بمظهر الساذج الأبله أمام شركائك الصينيين في أعمالك التجارية. فطالع إذن الموسوعة البريطانية (Britannica) التي تشتمل على مائة وثمانية وثمانين صفحة حول التاريخ الصيني، أو أي كتاب جيد حول هذا الموضوع. فربما أثر فيك ما تكتشفه من معلومات مثيرة وفتح شهيتك للاطلاع على المزيد.

لحسن الحظ (وللمتعة أيضًا) نورد هنا أهم ثمانية عشر شيئًا تلزمك معرفتها عن ماضي الصين. وسوف نتناول في البداية أهم ست شخصيات أساسية في تاريخ الصين. ثم ندلف لاستعراض أهم ستة أحداث أو ست نقاط تحول. ومن ثم نختم مناقشتنا بوصف موجز لأهم ستة عناصر توجه بَوْصَلَة الصين خلال هذا القرن.

الشخصيات الأساسية في المملكة الوسطى:

كونفوشيوس (Confucius) (551 - 479 ق. م):

حمل كنق كونق (King Kong)، القرد الضخم فاي راي (Fay Wray)، جيسيكا لانق (Jessica Lang) ونعومي واتس (Naomi Watts) في راحة يده. هل تذكرون مقاتلي كونق فو (Kung Fu)؟ ماذا عن العرض التلفازي السابق (Kung Fu) الذي قدمه ديفيد كارادين (David Carradine) بعنوان "الجندب الصغير"؟

ومن ثم القول المأثور الذي ساقه كونفوشيوس (Confucius): "إن الصورة تعدل ألف كلمة". فكل تلك الثقافة الشعبية والمعرفة التقليدية، قد نشأت من الاسم، الحياة، وتعاليم فيلسوف ومصلح اجتماعي صيني عاش قبل 2500 عام. كان اسمه عند ولادته كونق كي (Kong Qui) أو كونق زونقني (Kong Zhongni) فأطلق عليه مريدوه فيما بعد لقب (كونق فوزى)[1] (Kong Fuzi) تشريفًا له وتعظيمًا. (كلا، بالطبع لايعني هذا "القرد الضخم"، بل أرفع شأنًا وأعظم: "المعلم والزعيم الديني الموقر"). وترجمته اللاتينية: كونفوشيوس (Confu-cius) وهو الاسم الشائع في الغرب اليوم.

لقد أجمع المؤرخون على أن كونفوشيوس (Confucius) ولد عام 551 أو 552 ق. م ليسلب سليلي النبلاء الذين كانوا في المنطقة التي تعرف اليوم بمحافظة شاندونق الواقعة في منتصف المسافة بين شانغهاي وبيجينق، القوة والنفوذ وكل أسباب العزة والمتعة.

وآنئذٍ ظهرت بدايات الصين، غير أن اثنتي عشرة دولة مختلفة أو نحو ذلك، كانت لا تزال تتصارع وتتنافس من أجل السيطرة على الإقليم الذي تشغله الصين اليوم، الأمر الذي أدى إلى سلسلة من الاضطرابات والتغير المستمر.

ربما اعتبر كونفوشيوس (Confucius) نفسه محافظًا مقارنة بالأساليب التي اتبعها (الملوك السابقون)، لكن على الرغم من ذلك، نجد أن الكثير من أفكاره ثورية، بل أكثر من ذلك، سبقت في كثير منها أفكار فلاسفة أوروبا الذين قادوا حركة التنوير(*) مثل جون لوك (John Locke) وبشرت بظهورهم. ومثلما فعل لوك (Locke) انتقد كونفوشيوس (Confucius) توريث السلطة والقرار، مناديًا بضرورة خدمة الدولة للشعب وليس العكس.

لقد قدم كونفوشيوس (Confucius) مبدأ أخلاقيًا قائمًا على حب الخير للآخرين، يمكن تلخيصه في الفكرة التي تقول: "لا تُكْرِه الآخرين على فعل شيء لا ترغب أنت نفسك في فعله". يبدو هذا منطقيًا.. أليس كذلك؟ مؤكدًا أن كل مجتمع ينشأ في ظل هذا المبدأ الأخلاقي ينعم بالضرورة بالازدهار الاقتصادي والاستقرار السياسي (أي أنه آمن من أي هجوم). كما يعد احترام التعاليم والعادات والتقاليد وعلاقات القرابة والنسب، دروسًا مهمة في الوقت نفسه.

لم يكن كونفوشيوس (Confucius) أسطورة في زمانه، إذ كان حقيقة ماثلة للعيان، سافر إلى مناطق كثيرة في الإقليم، وألقى دروسه ومحاضراته للكثيرين، لكنه مات وهو في السبعينيات ولم يزل ناصحًا ومعلمًا حديث العهد في مقاطعة ليو، حيث مسقط رأسه. وبعد موته، سارع تلامذته ومريدوه الذين كان بعضهم يشغل وظائف مرموقة، إلى نشر أفكاره شفاهة. ثم كتبت تعاليمه بعد ذلك في شكل أمثال، كأقوال منتقاة لا تزال تعيش حتى اليوم. وقد خدمت تلك التعاليم كأساس للتعليم الصيني لنحو ألفي سنة حتى ثورة الحزب الوطني عام 1911م، التي أزاحت أسرة كينق (Qing) عن سدة الحكم. وظلت معرفة التعاليم الكونفوشيوسية خلال القرنين مطلبًا أساسيًّا للتقدم لشغل الوظائف الحكومية.

(*) حركة التنوير: هي حركة فكرية ظهرت في أوروبا في القرن الثامن عشر، وأكدت التفكير العقلاني والطريقة العلمية، والإيمان بأن الجنس البشري يستطيع، من طريقة العقل، الاهتداء إلى المعرفة والفوز بالسعادة في آنٍ معًا (المترجم).

وتشـمل قائمة الفلاسفة المهمين الذين كان لهم دور مؤثر في البلاد أيضًا: مو زي (Mo Zi)، منسـيوز (Mencius)، يانق زو (Yang Zhu) وغيرهم. إلا أن كونفوشـيوس (Confucius) كان، وسيظل، أكثر المفكرين تأثيرًا عبر كل الأزمنة وفي كل الأمكنـة. وحتى اليوم، وعلى الرغم من أفول نجم الشـيوعية في مهدها الأصلي، لا يزال إحياء أفكار كونفوشيوس (Confucius) يحظى بشعبية واسعة.

كين شي هوانقدي (Qin Shi Huangdi)
أول أباطرة الصين (210 - 260 ق. م)**:**

تعد صور الجيش البني على البطاقات البريدية المعروضة في شيان، الواقعة في قلب المملكة الوسـطى، والقصـور الفخمة الشاسـعة التي تساوي مساحة كل منها مسـاحة ملعب كرة السـلة، المحفورة تحت الأرض، بالإضـافة لآلاف أفراد الجيش الرمادي والخيل المنتصـبة على ارتفاع سـت أقدام، التـي تبدو متوثبة لخوض معركة، تعـد كل تلك المظاهر التي يعـود عمرها لأكثر من ألفي سـنة، بمنزلة شاهد ثانوي فقط لأسطورة أول أباطرة الصين.

في عام 246 ق. م، عندما صـار زينق (Zheng) ملك كين (Qin) الجديد، كان اتحاد الدول المحيطة بها قد بدأ فعلًا. وبحلول عام 221 ق. م، تمكن من غزو كل جيرانه ثم أعلن نفسـه أول إمبراطور للصـين. ومع ذلك كانت إمبراطوريته منظمة ومرتبة ومكدسة بالأسلحة لدرجة تشبه احتشاد المتفرجين في ملعب لكرة القدم بالبرازيل، ثم بدأ الإمبراطور زينق (Zheng) إعادة تنظيم إمبراطوريته وترتيبها.

في البداية، قسـم كل الأراضـي التي تمكن من غزوها إلى محافظات، ثم قسـم المحافظات إلى ولايات. وألغى كل قوانـين الإدارة الإقطاعية المتخلفة، ثم عين هيئات جديدة لتولي الحكم، تقوم على أسـاس تسلسل السلطة والمسؤولية.

وجعل الأوزان والمقاييس والعملة منسقة لتسهيل جباية الضرائب. كما وحد اللغة لتسهيل انتقال المسؤولين للعمل في مختلف المحافظات والمقاطعات. وبجانب هذا كله، منع الأساليب المحلية للكتابة أو انفراد أي محافظة أو مقاطعة بحروف هجائية خاصة بها دون غيرها من سائر أجزاء الإمبراطورية.

من أجل تشجيع التجارة بين مختلف أقاليم الإمبراطورية، أمر أن تكون لكل عربة كارة تجوب الشوارع (المحور نفسه) من أجل تسهيل الحركة شمالاً وجنوبًا.

وأخيرًا، أمر أول أباطرة الصين ببناء سور الصين العظيم (وفي الحقيقة كان هذا يعني الربط بين مجموعة من الأسوار الصغيرة ومدها وتحصينها) على امتداد الحدود الشمالية للإمبراطورية.

إن الإرث الحقيقي لهذا العمل الشاق، وأول أباطرة الصين الجاد الحازم هذا، هو الصين نفسها. فقد عرف الإمبراطور كين (Qin) في لغة الهند الأدبية القديمة (السنسكريتية) بـ (سيناسثانا) (Cinasthana) ومنه جاء اسم (الصين). كما أن نظام الحكم الذي أسسه الإمبراطور كين شي هيوانقدي (Qin Shi Huangdi) قد ظهر أثره أيضًا في الصين الحديثة. وربما كان الأهم أن توحيده للغة قد وحد روح الصينيين وعقلهم في كل أنحاء العالم اليوم لأكثر من ألفي عام بعد رحيله.

وانق آن - شي (Wang An- shih)، المصلح الأعظم (1021 - 1086م):

بعد أفول نجم سلالة كين (Qin) مباشرة، سجل التاريخ صعود نجم أربع سلالات حاكمة أخرى وسقوطها- سلالة هان (Han)، شين (Xin)، شيو (Sui) وتانق (Tang). ثم أعقب زوالها صعود نجم سلالة سونق (Song) التي شهدت تحول الصين إلى إحدى الدول الرائدة في العالم آنئذٍ. ويعزى جل

ما حققته الصين من قوة وازدهار اقتصادي، لأفكار رجل واحد وطموحه، ذلك هو وانق آن – شي (Wang An –shih).

كان وانـق (Wang) شـاعرًا مشـهورًا، لكنـه كان موظفًا عاديًـا حتى عام 1069م، عندما عينه الإمبراطور الجديد شـين تسونق (Shen Tsung) مستشارًا له. فاسـتغل وانق (Wang) قربه من العرش ليبدأ تنفيذ اقتراحاته الإصلاحية التي أعدها قبل إحدى عشرة سنة في مذكرة تألفت من عشرة آلاف كلمة.

كان وانـق آن – شـي (Wang An –shih) حقًا جون مينـارد كينيز (John Maynard Keynes)(*) عصـره. إذ كان يؤمـن بـأن الحافـز المـادي هـو أهـم عامـل لتقوية الدولة. فابتكر نظامًا خاصًـا لتقليص فائـدة القروض الحكومية للمزارعـين والتجـار على حد سـواء لأدنى حـد ممكن. كما ضـخ العملة لدعم الاقتصــاد. وأسس نظامًا فعالًا لضبط المشتريات الحكومية. واهتم برفع كفاءة الأسـطول البحـري ودعـم التجارة الخارجيـة ووظف المال الـذي تم جمعه من الرسوم المفروضة عليها لدعم الاقتصاد.

أما فيما يتعلق بالجيش، فيذكر أن فكرة تأسيس جيش قوي كانت لغزًا حَيَّر كل أباطرة الصـين السـابقين؛ لأنها تستنزف الاقتصـاد، بالإضافة إلى خشية الأباطرة من سطوة الجيش على السلطة، ومن ثَمَّ سيطرته على مقاليد الحكم. أمـا الجيش الضـعيف الهزيل، فيجعـل الإمبراطورية عرضـة للاجتياح والغزو الأجنبي.

للتوفيـق بـين هاتـين المعضـلتين، تفتـق ذهـن وانـق (Wang) عـن فكرة رائدة لرفع كفاءة الجيش، إذ قرر إنشـاء مكاتب خاصـة تعنى بتطوير السـلاح

(*) جـون كينيز (1883- 1946م): اقتصادي ومالي بريطـاني، كان لنظرياته في الاقتصاد تأثير كبير في حكومات الدول الغربية. فهو يرى أن واجب الحكومات أن تصرف جميع جهودها لتأمين دوام العمل الكامل لليد العاملة، وذلك بفضل إنعاش التوظيفات المالية (المترجم).

واستيلاد الخيل وتربيتها، كما ابتكر نظام ميلشيا وطنية جديدة. فكانت تلك القوة المسلحة النظامية المحدودة، التي تدعمها أعداد هائلة من الميليشيا، كقوة احتياطية، جاهزة للتدخل عند الحاجة، أفضل فكرة اقترحها وانق (Wang) لخلق التوازن بين الخيارين.

على صعيد آخر، ازدهرت سلالة سونق (Song) في ظل تلك القوانين الجديدة. فازدهرت بالتالي التجارة، التقنية، الآداب والفنون. فعرف الصينيون كل الاكتشافات الأساسية التي سبقت العصر الحديث، كالورق، الطباعة، البارود والبوصلة واستخدموها. وازداد عدد سكان كيفينق (Kai-feng)، العاصمة، ليتجاوز المليون نسمة (يساوي هذا كل سكان إنجلترا يومئذٍ)، وصارت أكبر مدن العالم آنئذٍ من حيث المساحة والثروة.

جنكيز خان (Genghis Khan) **الفاتح المغولي** (1127 - 1262م)؛ (*)

أخيرًا، فشلت الأسوار. لم يستطع سور الصين العظيم مقاومة طموح خان (Khan) العظيم: "مثلما أنه لا توجد غير شمس واحدة في السماء، فبالمقابل، لا يوجد غير زعيم واحد في الأرض". فتمكن هو وفرسانه من الجيش المغولي، من الاستيلاء على بيجينق عام 1215 م، وتسويتها بالأرض، ثم انحرف جنكيز (Genghis) غربًا (فارس وأوروبا) ينشر الدمار والخراب حتى وفاته عام 1227م. فجاء بعده حفيده خوبيلي خان (1215- 1294م) (Khubilai Khan) ليكمل فتح الصين وإخضاعها، فتمكن أخيرًا من السيطرة على الجزء الجنوبي من إمبراطورية سونق (Song) عام 1279م.

خلال حكم الأسرة المغولية، كانت الطرق التجارية البرية بين الشرق الأدنى والشرق الأقصى، خاضعة لأول وآخر مرة في التاريخ لسلطة واحدة. كما

(*) فاتح وإمبراطور مغولي، بسط سلطانه على منغوليا وفتح شمال الصين، ثم احتل مناطق واسعة في آسيا الوسطى والجنوبية وآسيا الصغرى (المترجم).

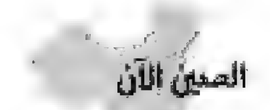
تم تحرير التجارة واتسعت دائرة تأثيرها. ووضع جيش خان (Khan) يده على الزناد دائمًا للسيطرة على بقية أجزاء الإمبراطورية وضبط الأمن فيها. وسمح بتعدد الديانات والمذاهب، بما فيها المسيحية، الإسلام، اليهودية، الطاوية(*)، الكونفوشيوسية والبوذية. وأمر خان (Khan) ببناء المدينة المحرمة، كما أمر بإكمال حفر القناة الرئيسة إلى الجنوب من هانقزو حتى بيجينق.

لكن، أخيرًا ازداد عدد المغول وقويت شوكتهم، فآثروا الحياة في القصور ورغدها على حياة الخيام وشظفها. فصاروا أكثر نعومة بسبب تحولهم التدريجي واندماجهم الصيني. وبوفاة خوبيلي (Khubilai) أفل نجم الإمبراطورية الشرقية إلى أن أعيد تأسيس القانون الصيني عام 1366م، لكن مع ذلك، فشلت الإمبراطورية في استعادة مكانتها في مصاف الأمم مرة أخرى. كما حال الدمار الذي أحدثه المغوليون والاستبداد الذي مارسوه، بالإضافة لتقييد الحريات الشخصية وروح الابتكار والإبداع، حال ذلك كله دون تطور الحضارة الصينية. وحقًّا، ربما كان أعظم إرث تركه خان (Khan) للصينيين هو خوفهم من كل ما هو غريب وأجنبي، وكرههم له الذي تراه متجذرًا فيهم حتى اليوم.

صن يات – سين (Sun Yat -sen) **أبو جمهورية الصين** (1866 - 1925م)**:**

حافظت أسرة منق (Ming) على ما أحرزه المنشوريون من تقدم للثلاثمائة سنة التالية. لكن مع ذلك، وقعت الصين عام 1644م، مرة أخرى تحت سطوة

(*) الطاوية: عقيدة فلسفية، عرفت هكذا نسبة إلى فكرتها المركزية التي تعتمد على المبدأ الأول الذي ينبثق منه كل وجود وتغير في هذا الكون. أسسها فيلسوف صيني يدعى لاوتسي (Laotse) وتتسم بطابع صوفي، وتقول إن سعادة الإنسان رهن بحفاظه على طبيعته وتحقيقه قدره عن طريق إطراح هموم الحياة، واجتناب الخوف من الموت والعيش ببساطة وعفوية وكأنه طفل من الأطفال (المترجم).



القوى الأجنبية. إذ امتد حكم المانشويين (*) لها حتى القرن العشرين. وكان طبيعيًا أن تثير ممارسة الأجانب حفيظة الصينيين، مثلما هو حال كل القوى الاستعمارية، فثار الصينيون بزعامة طبيب شاب يدعى صن يات – سين (Sun Yat –sen) معلنين تأسيس جمهورية صينية في قوانقزو عام 1895م. غير أن محاولتهم باءت بالفشل، فهرب زعيمهم صن (Sun) إلى اليابان ومنها إلى إنجلترا.

وفي لندن، قبض عليه عملاء المانشويين فأودع السفارة الصينية. فأرسلت مذكرة سرية إلى طبيب بريطاني كان معلمًا له في هونغ كونغ. فأجريت اتصالات سرية سريعة أمنت إخلاء سبيله. فأدت تلك الحادثة إلى خلق سمعة عالمية لذلك الطبيب الشاب. فقضى الخمس عشرة سنة التالية يدرس السياسة الغربية واتجاهات الغرب الاجتماعية متنقلًا بين اليابان، فرنسا والولايات الأمريكية المتحدة ناشدًا الدعم لقضيته.

وبالعودة إلى الصين، نجد أن نظام المانشويين بدأ ينهار في تلك الفترة بسبب تصاعد وتيرة تمرد الجيش الصيني وثورة الشعب. وأخيرًا، بلغ السيل الزبى، فانفجر الغضب عام 1911 م، لتعلن خمس عشرة محافظة استقلالها. فعاد صن (Sun) لشانغهاي، وخرجت الجماهير لاستقباله بحفاوة كرئيس مؤقت لجمهورية الصين. فبقي كذلك مدة شهرين. أعفيت بعدها حكومته في نانجينق لتحل محلها حكومة جمهورية جديدة في بيجينق، ليسدل الستار بعد ذلك على حكم المانشويين في كل أرجاء الصين.

وهكذا كسب الدكتور صن (Sun) الرهان، فانتهت سيطرة السلالات الحاكمة على الصين إلى الأبد. لكن استدعى الأمر عقدين آخرين من الزمن

(*) المانشويون: شعب منشوريا المغولي الذي فتح الصين عام 1644م وأسس فيها سلالة مانشو الإمبراطورية التي حكمت الديار الصينية من عام 1644م حتى عام 1911م. أما منشوريا فهي منطقة في الجزء الشمالي الشرقي من الصين؛ مساحتها 1.554.000 كيلو متر مربع. وعدد سكانها 70.000.000 نسمة (المترجم).

من الجنرال شيانق كي – شيك (Chiang Kai-shek) الذي كان مقربًا من الدكتور صن (Sun) لبسط سيطرته على معظم أنحاء البلاد بعد تغلبه على مختلف أمراء الحرب، وعلى كل حال، لقد نجح الدكتور صن (Sun) في غرس بذور الديمقراطية الغربية في أرض الإمبراطورية القديمة الطيبة.

زو إنلي (Zhou Enlai) رجل الدولة (1898 - 1976 م):

إن كان الرئيس ماو زيدونق (Mao Zedong) يمثل قبضة الثورة الشيوعية المحكمة ووجهها الصارم، فقد كان زو إنلي (Zhou Enlai) يمثل عقلها المدبر وقلبها النابض بالحياة. فحين كان ماو (Mao) يسيطر على مقاليد الأمور، كان زو (Zhou) يضطلع بمهمة المفاوضات.

كان زو (Zhou) قد تلقى دروسه في الخارج، فدرس أولًا في اليابان ثم انتقل منها إلى فرنسا، حيث تعلم الشيوعية. ومثل الحزب الشيوعي الصيني في الفترة ما بين عامي 1921 و 1924 م. ثم عاد إلى قوانقزو لمساعدة صن يات – سين (Sun Yat -sen)، شيانق كي – شيك (Chiang Kai - shek) والحزب الوطني لإحكام سيطرتهم على الشعب. وفي ذلك الوقت، عين زو (Zhou) نائبًا لمدير الشعبة السياسية بكلية وامبوا الحربية، في حين عين شيانق (Chiang) مديرًا لها. وبحلول عام 1927 م، طهر شيانق (Chiang) اليميني المتطرف، الحزب الوطني من الشيوعيين، وبالكاد نفد زو (zhou) بجلده. فلحق بـ (ماو) (Mao) في الريف وانضم إليه حيث كان الأخير ينشئ الجيش الأحمر. كان ماو (Mao) يعرف الفلاحين جيدًا ويدرك فن الثورة. أما زو (Zhou) فكان يعرف كل الأشخاص الآخرين وكل شيء آخر ماعدا فن الثورة. فشكّلا بذلك ثنائيًا قويًا حكم الصين حتى وفاتهما عام 1976م.

وبعد المسيرة الطويلة(*) عام 1935 م، فاوض زو (Zhou) الحزب الوطني بشأن التحالف الإستراتيجي للوقوف في وجه الغزاة اليابانيين. لكن شيانق كي شيك (Chiang Kai-shek) عارض ذلك التحالف، فأسرع قادة جيشه لاعتقاله في شيان. فانتقل زو (Zhou) على عجل إلى هناك، فأنقذ حياته بعد أن كان يواجه موتًا محققًا.

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها، مثل زو (Zhou) الحزب الشيوعي الصيني مرة أخرى برعاية أمريكية لعقد صفقة سلام مع الحزب الوطني، غير أن تلك المحاولة قد منيت بالفشل. وبعد انقضاض الشيوعيين على السلطة في الصين عام 1949 م، فاوض زو (Zhou) السوفيتيين (سابقًا) بشأن معاهدة تحالف مدتها ثلاثون سنة. ثم خرج في خمسينيات القرن الماضي في عدة أسفار شملت أوروبا، آسيا وأفريقيا لحشد الدعم السياسي للثورة. كما شارك في اتفاقية جنيف التي حسمت موضوع تقسيم فيتنام. وقاد خلال ستينيات القرن الماضي الثورة الثقافية (**) للترويج لتعاليم ماو (Mao) فالتقى عام 1971م، هنري كيسنجر (Henry Kissinger) للتحضير لاجتماع الرئيس نيكسون (Nixon) والرئيس ماو (Mao) في العام التالي في بيجينق.

وأخيرًا، وربما كان من أعظم إنجازاته التي لا تزال آثارها باقية حتى اليوم، أنه أعاد دينق شياوبنق (Deng Xiaoping) الذي يعد مصلحًا اقتصاديًا خلال ثمانينيات القرن الماضي وتسعينياته، لقيادة الحزب الشيوعي الصيني.

(*) المسيرة الطويلة: تراجع إستراتيجي، اضطر الجيش الصيني الأحمر إلى القيام به (1934 – 1935م) بقيادة ماو تسي تونق (Mao Tsi Tong) من مقاطعة كيانقسي في الجزء الجنوبي الشرقي من الصين إلى مقاطعة شنسي في الجزء الشرقي من وسطها، وذلك في وجه تهديد القوات الصينية الوطنية، بقيادة شيانق كي – شيك، بالانقضاض عليه وإفنائه (المترجم).

(**) الثورة الثقافية: اسم أطلق على حركة اجتماعية قامت في الصين عام 1966م، استهدفت إحداث تطهير إيديولوجي واسع، وتعزيز الثقة بتعاليم ماو تسي تونق (Mao Tsi Tong) (المترجم).

نقاط التحول ومفتاح الأحداث:

السفن البرتغالية تحط رحالها في الصين (1514 م):

أدت السياسات والفتوحات وقطاع الطرق خلال منتصف الألفية الثانية، إلى جعل طريق الحرير بين أوروبا والصين أقل أهمية. وقد تعامل الصينيون مع هذه التجربة في البداية بتسيير سبع رحلات بهدف الاكتشاف والتوسع.

في عام 1403 م، قاد شنق هو (Cheng Ho) أول وأضخم أسطول تجاري وعسكري سيرته أسرة مينق (Ming)(*) ليبحر جنوبًا تجاه الهند وأفريقيا. وقد أظهرت بعض السجلات أنه تكون من مائتي سفينة، كان على متنها (27.000) رجل. وقد زاد طول بعض تلك السفن على أربعمائة قدم، في حين بلغت حمولة بعضها (1500) طن. وبمقارنته بأسطول كولومبوس (Columbus) نجد أن الأخير تكون من ثلاث سفن فقط، بلغ عدد أفراد طاقمها (87) شخصًا. ولم يتجاوز طول أضخم سفينة بينها المائة قدم، في حين لم تزد حمولتها على المائة طن فقط.

صحيح.. تعد هذه المغامرة الصينية غير المسبوقة[3] عملًا ضخمًا، غير أنه لم يعد بفائدة ملموسة. وكانت الرحلة السابعة بين عامي 1431 و1433م هي الرحلة الأخيرة ضمن ذلك الأسطول العملاق. إذ أغلقت الصين بعدها حدودها أمام التجارة العالمية. وقد رأى كثيرون أن ذلك كان يمثل بداية انحدار المملكة الوسطى الذي استمر أربعمائة عام.

وعليه، فقد اضطر تجار البندقية والتجار المسلمون الذين كانوا يسيطرون على التجارة في البحر الأبيض المتوسط، الإسبان والبرتغاليون والإنجليز لكي

(*) أسرة مينق (Ming): أسرة إمبراطورية، حكمت الصين من عام 1368 حتى عام 1644م. في عهدها ازدهرت الثقافة والفنون، ونشطت حركة العمران. أسسها الإمبراطور مينق تاي تسو (Ming Tai Tsu) الذي ولد عام 1328م وتوفي عام 1398م، فوحد الصين كلها تحت حكمه وأحدث إصلاحات عسكرية وإدارية ذات شأن (المترجم).

يدفعوا كثيرًا مقابل التوابل والحرير الذي يجلب من آسيا الشرقية. مما حدا بفاسكو دا جاما (Vasco Da Gama) ورفاقه البرتغاليين إلى أن يتجهوا جنوبًا وشرقًا ليبلغوا أخيرًا ساحل الصين عام 1514 م. لكن خوف الصينيين من كل ما هو غريب وأجنبي حملهم على إغلاق موانئهم أمام بعثات الاستكشاف البرتغالية. غير أن إلحاح البرتغاليين المستمر مكنهم في النهاية من الحصول على موطئ قدم لهم في ماكاو(*)، فلم يغادروها إلا بعد (464) سنة.

فانخفضت أسعار التوابل والحرير في لشبونة بنسبة (80%) أجل، (80%)! فاتجهت إليها الأمم الأوروبية الأخرى المشتغلة بالملاحة، حاملة معها تأثيرات التجارة والمسيحية. وغالبًا ما كانت تنصب المدافع في طرق التجارة الملاحية.

واليوم، لا تزال الصين في الألفية الثالثة ترفض ما يقدمه لها الغرب من هدايا وهبات.

حرب الأفيون الأولى ومعاهدة نانجينق (1839 – 1842م)

أدى إقبال الإنجليز على تذوق الشاي في مطلع عام 1800م، إلى عجز هائل في الميزان التجاري مع الصين. فاتجه الذهب والفضة بسرعة وبكميات هائلة ناحية الشرق. وبالطبع، شملت التجارة بضائع أخرى أيضًا. فاشتملت الصادرات الصينية على: السكر، الحرير، عرق اللؤلؤ، الورق، الكافور، القرفة، النحاس، الشب، طلاء اللك، الروائد(**)، مختلف أنواع الزيوت، الخيزران والخزف الصيني.

(*) ماكاو: مستعمرة برتغالية تتألف من شبه جزيرة ماكاو وجزيرتين صغيرتين متجاورتين، هما جزيرة تايبا وجزيرة كولوان. لغتها الرسمية: البرتغالية. ديانتها الرسمية: الكاثوليكية. مساحتها: 15.5 كيلو متر مربع. عدد سكانها: 460.000 نسمة. وعاصمتها: ماكاو (المترجم).

(**) الروائد: نبات عشبي من الفصيلة البطاطية، ذو منافع طبية (المترجم).

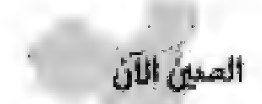
وبالمقابل يعود التجار الأجانب محملين بالقطن، المنسوجات الصوفية، الحديد، الصفيح، الرصاص، العقيق، المجوهرات، الفلفل، جوزة الفوفل (*)، اللؤلؤ، الساعات، المرجان، الكهرمان (**)، الخرز، أعشاش الطيور، زعانف أسماك القرش، المواد الغذائية كالأسماك والأرز.

لقد لاحت الفرصة الذهبية للشركة الإنجليزية المعروفة بـ (شركة الهند الشرقية): أجل.. الأفيون. فهو سهل النقل بكميات كبيرة لأنه خفيف الوزن، كما يدمنه المستهلكون فلا يستطيعون عنه فكاكًا؛ يا له من منتج عظيم! يومئذٍ كان أفضل أنواع الأفيون يأتي من الهند البريطانية. وعندما ازداد تدفقه اختفى الكساد التجاري الذي حدث بسبب الشاي بسرعة البرق. فاعترض الإمبراطور وأصدر عدة مراسيم، لكن مع ذلك، نشطت تجارة الأفيون وازدهرت. فلا تزال بناية جاردن – ماثيزون للتجارة [4] التي تعد واحدة من أعلى ناطحات السحاب في هونغ كونغ، تحمل عبق ذكريات تلك السفن التي نشطت في تجارة الأفيون، من خلال نوافذها الدائرية، فجنت منها أموالًا طائلة استثمرتها في بنائها.

بحلول عام 1836م، طالبت مجموعة من موظفي الدولة الذين يشغلون وظائف رفيعة، بضرورة سن قوانين وتشريعات خاصة تنظم تجارة الأفيون. فسارع الممولون الأجانب لإغراق الأسواق استباقًا لتلك القوانين. لكن قرار الإمبراطور كان في الاتجاه المعاكس تمامًا، إذ أمر بتدمير هذا الاكتشاف الجديد (الأفيون) تدميرًا شاملًا في قوانقزو. وما إن حل عام 1839م حتى تلاشت تجارة الأفيون نهائيًّا. وكردة فعل على ما حدث، سارع الإنجليز لإغراق السفن الشراعية التجارية الصينية في نهر بيرل وحاصروا كل موانئ الصين.

(*) الفوفل: شجر من النخليات يحمل جذرًا يمضغ مع أوراق التنبول في بعض أصقاع جنوب شرق آسيا (المترجم).

(**) الكهرمان: راتينج أحفوري أصفر، نصف شفاف، تصنع منه السبحات وبعض الحلي وأدوات الزينة (المترجم).



وصوب البريطانيون مدافعهم تجاه نانجينق دعمًا للمفاوضات التي أجريت هناك عام 1842 م. فتخلت الصين بموجبها عن هونغ كونغ للإنجليز، ودفعت لهم بجانب ذلك (21) مليون جنيه إسترليني. وفتحت موانئ سيامين، فوزنتقبو وشانغهاي أمام الأجانب للتجارة والاستيطان. وهكذا صارت هونغ كونغ بوابة الصين الخائفة المتوجسة من كل ما هو أجنبي، خاصة للخمسين عامًا الأخيرة. وربما أدركت الصين لأول مرة مدى ما خسرته من قوة؛ إذ انهارت مملكتها فتبددت بذلك أحلامها.

أخيرًا، خرجت حرب الأفيون عن قدرة سطوة التجار الأجانب على تجارة الصين، كما فشلت معاهدة نانجينق في وضع حد للمشكلة. واندلعت حرب أفيون أخرى بين عامي 1857 و 1860 م. فاتحدت كل من القوات البريطانية والفرنسية في ذلك الوضع المعقد لتدمير قصر المصيف في بيجينق. فأتاح هذا الإذلال الجديد مزيدًا من الحريات للتجار الأجانب. ومرة أخرى، عقدت اتفاقية تضمنت شرطًا جزائيًا أتاح حرية عمل التبشير المسيحي في أرجاء مملكة الصين الوسطى كافة.

تمرد تايبيه (1851 - 1864 م)؛

كان فقدان الثقة في حكومة الصين أحد أبرز نتائج ذلك الإذلال الذي قطف ثماره الأجانب. فبلغت الفوضى ذروتها في محافظة قوانقكسي عند أقصى جنوبي الإمبراطورية.

كان رئيس تلك الثورة مزارع ولد قرب قوانقزو حيث نشأ وترعرع، يدعى هونق شيكوان (Hong Xiuquan). كان يتمنى أن يحظى بوظيفة في الدولة، لكنه فشل في اجتياز الامتحان الذي يبنى عادة على تعاليم كونفوشيوس. وعندما عاد إلى قوانقزو لإعادة المحاولة مرة أخرى في اجتياز الامتحان، التقى مبشرين بروتستانت غربيين، فبدأ يرى تجليات ذاتية.

وبعد فشله في اجتياز الامتحان للمرة الرابعة عام 1843م، بدأ يبشر بالمسيحية، مقدمًا نفسه كأخ للمسيح. فنجحت مساعيه خلال السنوات السبع التالية في تنصير عشرة آلاف شخص وإقناعهم باعتناق المسيحية. وبحلول عام 1851م، نصبه أتباعه (ملكًا سماويًا مقدسًا) لـ (مملكة السلام السماوية). لكن على الرغم مما أطلقوه من لقب على ملكهم، وما اتخذوه من نعت لمملكتهم، نجحوا في الثورة وتمكنوا من قطع ذيل الخنزير في تحدٍّ سافرٍ لأسرة مانشوي الحاكمة، ثم اتجهت ثورتهم تزحف نحو الشمال، وبسبب ما تميزوا به من حماسة وتعصب ديني، قاتلوا بجرأة وشجاعة منقطعة النظير، فاجتاحوا العاصمة نانجينق، وواصلوا زحفهم حتى بلغوا مشارف تاينجين عام 1855 م.

ثم بدأت الأشياء بعد ذلك تتغير. فنظمت قوات صينية معارضة. وبسبب غضب الأجانب على ما ساقه هونق (Hong) من تفسير للكتاب المقدس، وما اتخذه لنفسه من خليلات بلغ عددهن (88) خليلة، وما شنه على شانغهاي من هجمات، شكلوا جيشًا آخر ضده. فانتحر قبيل الهزيمة الأخيرة واحتلال نانجينق.

لقد قدر عدد من لقوا حتفهم بسبب تمرد تايبيه بين عشرين إلى أربعين مليون ضحية! أجل، نكرر مرة أخرى: بين عشرين إلى أربعين مليون شخص صيني قد قتل. وبالمقابل، قتل مليون شخص فقط في الثورة الشيوعية. وعليه، يعد تمرد تايبيه أسوأ حرب أهلية وأكثرها دموية في تاريخ الإنسانية في العالم أجمع. ودون أدنى شك، قد جن جنون هونق شيكوان (Hong Xiuquan). وبجانب هذا، اندلعت ثورات أخرى في الصين في الوقت نفسه. كانت ثورة المسلمين في الشمال الغربي من البلاد (1862 – 1878 م) أوضح تلك الثورات.

على كل حال، بناء على تلك الأحداث في مطلع تسعينيات القرن الماضي، من السهل جدًّا أن ندرك سبب خشية القادة الصينيين وتوجسهم من الحركات الثورية التي تندلع على أسس عقدية حتى اليوم.

الحرب الصينية - اليابانية ومعاهدة شيمونوسيكي (1894- 1895م):

في عام 1281 م، حطم الإعصار الياباني أو ما كان يعرف بـ (الكاميكاز)(*) الأسطول الصيني - المغولي الذي كان في طريقه لاجتياح اليابان. كما دمر الأسطول الصيني أيضًا عام 1894 م، لكن لم يحدث الدمار هذه المرة بفعل إعصار هب من السماء، بل بالمدافع اليابانية. كانت المعركة التي نشبت بين البلدين بسبب كوريا التي كان الصينيون ينظرون إليها كملك حر لهم.

مرة أخرى تتعرض الصين للذل والخزي من الأجانب، لكن هذه المرة من جار بينها وبينه كره شديد، كانت تنظر إليه كشعب من القراصنة الخاضعين لها. فكان وقع معاهدة شيمونوسيكي كالصاعقة على الصين، إذ ضمنت استقلال كوريا، التنازل عن تايوان، جزيرة بيسكادورس، شبه جزيرة لياودونغ (التي تقع غرب كوريا مباشرة) بالإضافة لملايين الدولارات كتعويض.

خلال أسبوع واحد فقط أجبرت كل من ألمانيا، فرنسا وروسيا، اليابان على التخلي عن شبه الجزيرة لصالح الصين، مقابل أن تضخ الأخيرة مزيدًا من الأموال. فأتاحت تلك الدبلوماسية للروس الدخول إلى منشوريا من خلال تحالف سري مع الصين. فيما رأت الدول الغربية الأخرى (ماعدا الولايات الأمريكية المتحدة) أن ضعف الصين في تلك الظروف يتيح فرصة مواتية لتمزيقها وتقطيع أوصالها. غير أن ما نشب بينها من شجار وتنافس على الغنيمة، حال دون عمل شيء يذكر. وبالطبع، حكمت اليابان تايوان للخمسين عامًا التالية حتى إلحاق الهزيمة بالأولى خلال الحرب العالمية الثانية.

(*) الكاميكاز: الطيار الانتحاري، أحد أفراد فرقة طيران يابانية، مهمتها القيام بهجوم انتحاري على هدف عسكري. كما تعني أيضًا: الطائرة الانتحارية، وهي طائرة تحتوي على متفجرات مهمتها الانقضاض على هدف عسكري انقضاضًا انتحاريًا (المترجم).

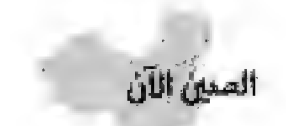
نشأة جمهورية الصين الشعبية (1949 م):

بالعودة إلى مهمة زو إنلي (Zhou Enlai) العاجلة إلى شيان التي أنقذت حياة شيانق كي - شيك (Chiang Kai - shek) عام 1936م، وأكدت أن الصين المتحدة تستطيع الوقوف ضد انقضاض اليابان عليها؛ نجد أن الجيش الأحمر اندفع يقاتل اليابانيين بضراوة في الشمال، وتمكن بفضل ما حصل عليه من دعم سوفيتي بعيد نهاية الحرب، من السيطرة على معظم الحدود التي كان اليابانيون يطالبون بها سابقًا مدعين ملكيتها. وعندما فشلت جهود الجنرال جورج مارشال (Jeorge Marshall) في تحقيق السلام، اندلعت الحرب الأهلية من جديد عام 1946م.

حتى عندما دعمت الولايات الأمريكية المتحدة الصين، لم يكن شيانق (Chiang) مستعدًّا بعد للانقضاض على اليابان إثر تدمير الأمريكيين لها بالقنابل النووية. لكن على كل حال، حقق الجيش الوطني نصرًا مؤزرًا في وقت مبكر، غير أنه مني بهزيمة ساحقة في منشوريا عام 1948م.

على صعيد آخر، لم يكسب شيانق (Chiang) أتباعًا كثيرين بسبب شخصيته الاستبدادية واعتماده سياسة القمع. وفي المقابل، جذبت القوات الشيوعية أعدادًا هائلة من المناصرين إلى صفوفها، فبدأت تحكم سيطرتها. وفي يناير من عام 1949 م، سقطت بيجينق وتيانجين في قبضتها. وفي أبريل من العام نفسه، عبرت القوات الشيوعية نهر يانقتيز، فهربت قوات الحزب الوطني إلى تايوان. وهكذا وضعت الحرب أوزارها.

تجدر الإشارة إلى أن جمهورية الصين الشعبية قد تأسست سابقًا بموجب مرسوم ماو زيدونق (Mao Zedong) الذي أعلنه في ساحة تيانانمين في بيجينق في غرة أكتوبر عام 1949م. أما التيبت، فقد أعيد احتلالها عام 1951م. ورحب السواد الأعظم من الصينيين بـ (التحرير) وما صاحبه من تشكيل حكومة



مركزية قوية وإصلاح للأراضي. فقد سئموا الفوضى وضاقوا بها ذرعًا. واستمرت سيطرة الدولة على وسائل الإنتاج ومدخلاته في الريف حتى انتفاضة آخر مزارع في عام 1957م.

في الوقت نفسه، بدأت حركة ماو (Mao) التطهيرية على نطاق واسع. وفي مطلع ستينيات القرن الماضي، عقد صفقة سياسية سرية مع منتقديه من السوفييت، في حين شرع في تطهير أعضاء قيادته من مناوئيه.

من جهة أخرى، يذكر أن القفزة العملاقة التي حققتها الصين في أواخر خمسينيات القرن الماضي، والثورة الثقافية التي شهدتها في مطلع ستينياته، قد كانتا بمنزلة كارثتين (اقتصادية واجتماعية) على جمهورية الصين الشعبية. كما استمرت الأزمة الاقتصادية حتى سبعينيات القرن نفسه.

الثورة الثقافية (1966 - 1976م):

بدأ العد التنازلي للصين خلال الخمسين عامًا الماضية عام 1966 م. إذ تعب الرئيس ماو (Mao) مرة أخرى من انتقاد كبار رجال الدولة لسياسته، ففقد إثر ذلك قبضته المحكمة على الحزب. ولكي يستعيد سيطرته على زمام الأمور، شكل ما عرف بـ (الحرس الأحمر) وهو مجموعة من المقاتلين والمهاجمين وطلاب المدارس العسكرية العليا في جميع أنحاء البلاد. وأوكل إليه مهاجمة كل ما هو تقليدي. فأدت سخرية الطبقة المثقفة من تلك الممارسات القمعية لانهيار نظام التعليم. كما حطمت المواقع والآثار التاريخية. كما نُفِيَ الرأسماليون مثل دينق شياوبينق (Deng Xiaoping) إلى الريف وهُددوا بالإعدام. فكادت تلك الفوضى تؤدي إلى نشوب حرب أهلية.

أخيرًا، أمر ماو (Mao) بحل (الحرس الأحمر) في شهر أغسطس من عام 1968 م. مفسحًا المجال للجيش للسيطرة على الأوضاع.

لكن مع الأسف الشديد، لقد حدث ذلك بعد فوات الأوان، فثمة دمار كبير حل بالبلاد. إذ قضى بعض ألمع جيلها وأكثره ذكاء سنوات عمره في الزراعة بدلاً من الذهاب إلى المدارس. فبسبب حرمانهم من التعليم الأساسي، اضطر كثير من أولئك الأشخاص الذين حرمتهم الثورة الثقافية من تقلد وظائف مرموقة، للعمل في أعمال وضيعة لكسب قوتهم، على الرغم من أن أعمارهم تتراوح بين العقدين الخامس والسادس. ولشدة ما تجرعه الصينيون من مرارة وما لحق بهم من ظلم واضطهاد، فقد وصفوا الفترة بين عام 1966م ووفاة ماو (Mao) عام 1976م بـ (السنوات العشر الضائعة) من عمرهم.

من يمن الطالع، أن استطاع دينق شياوبينق (Deng Xiaoping) مقاومة الظروف والبقاء على قيد الحياة في الريف، فظهر بعد بضع سنوات قائدًا فعليًا للشعب. فتبرأ من الثورة الثقافية وشرع ينفذ رؤيته الإصلاحية (اقتصاد السوق الاشتراكي)، وما زال انفتاح الصين تجاه التجارة العالمية الذي بدأه دينق (Deng) عام 1978 م، مستمرًا حتى اليوم.

الأفكار الأساسية للمملكة الوسطى:

اللغة:

لا شك في أن الارتباط بين الحدود الوطنية والعامل اللغوي وثيق الصلة وأكثر تأثيرًا من السياسة. وخير شاهد على ذلك ما نراه اليوم بعد انهيار الاتحاد السوفيتي أو تمزق يوغسلافيا. وصحيح.. قد تؤثر بعض المظاهر الثقافية الأخرى، كالدين والطبخ وغيرهما، لكن تبقى اللغة دائمًا هي العامل الأهم الذي يحدد هوية الشعوب.

وعليه، ترسخ لدينا انطباع سياسي خاطئ عن (الصين العظيمة) التي يقطن مواطنوها جمهورية الصين الشعبية (التي تشمل هونغ كونغ) وتايوان

وبالطبع، بقية أنحاء العالم، فهي ليست شيوعية أو كاثوليكية، جمهورية أو ديمقراطية، إذ يتعلم أبناء الصينيين المهاجرين وبناتهم في كل من فانكوفر، لوس أنجلوس، كوالالمبور، مانيلا وسيدني كيفية التفكير في أنفسهم كصينيين عندما يجلسون في مقاعدهم الدراسية صباح كل سبت لتعلم اللغة، وكذا الحال عندما يسمعون تراثهم الشعبي ولغتهم الأم في منازلهم. وبكل تأكيد، الأطفال ليسوا مجرد أشخاص يجلسون إلى مقاعد الدراسة لتلقي العلم فحسب، بل إنهم يوفرون مادة خصبة للدراسة أيضًا. إذ يعزز تعلم اللغة، أي لغة، طرق التفكير بشكل عميق للغاية. فغالبًا ما يشتكي الجيل الأول ممن هاجروا إلى أمريكا، انتهاك الأمريكيين لبعض القيم والمبادئ كالعمل الشاق في الجيل الثاني. غير أن اكتساب اللغة ساعد على المحافظة على سلامة تلك القيم والمبادئ، حتى إن كان ذلك تحت السطح، غير ظاهر للعيان. وبالمقابل، ساعدت دروس اللغة العبرية على المحافظة على سلامة الثقافة اليهودية بالطريقة نفسها حول العالم وعبر القرون.

تعلم اللغة الصينية المكتوبة، مسألة تنمية للذاكرة أكثر منها مسألة تعلم حروف هجائية لربط الحروف مع بعضها بعضًا، ومن ثم تكوين أصوات وكلمات. فعلى الطالب الذي يتعلم اللغة الصينية أن يكون قادرًا على حفظ نحو خمسة آلاف رمز أو حرف أبجدي واستذكارها عند الحاجة. يشتمل معظمها على معلومات مصورة وإشارات عند النطق. لكن معظم تلك المعلومات قد اختفت عبر القرون، فكان لا بد من الاعتماد على الذاكرة. فكان هذا الجهد الشاق عاملًا مهمًا لتوحيد الناطقين باللغة الصينية بطريقة ثقافية خاصة. كما أنها حدت من القدرة على الإبداع. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه تم تبني هجائية مبسطة في الموطن الأصلي، في حين ظلت هونغ كونغ، تايوان، وإلى حد ما اليابان، تستخدم الألفباء الصينية التقليدية.

من جهة أخرى، ما زال الناس في الصين اليوم يتحدثون مئات اللهجات المحلية واللغات، في حين يتواصل السواد الأعظم من الشعب بالكتابة، مستخدمين الحروف الهجائية الصينية. لكن على الرغم من اشتراك جميع السكان في أسلوب واحد للكتابة، إلا أن سكان المحافظات الشمالية لايستطيعون التحدث إلى سكان المحافظات الجنوبية.

في الشمال تشيع لهجة المندرين، أما في دلتا نهر يانقتيز، فتشيع لهجة شانغهاي، فيما يتحدث أهل الجنوب اللهجة الكانتونية. وقد كان في الصين ثماني لهجات أساسية، لكن الحكومة دأبت منذ عام 1949م على تشجيع الجميع لتعلم المندرين والتواصل بها. وعليه، بإمكانك اليوم قراءة الصحف المسائية في هونغ كونغ باللهجة الكانتونية أو بلهجة المندرين. كما تعد الأخيرة أيضًا اللغة الرئيسة في تايوان.

الأفكار تتدفق من الجنوب:

يقول المثل المفضل لأهل الجنوب في الصين: (إنهم يصوغون القوانين في بيجينق، فنترجمها في قوانقزو). ويعكس هذا المثل الحقيقة التاريخية التي تفيد بتدفق الأفكار الجديدة من الجنوب للشمال في الصين. ويعزى أحد أسباب هذا لعزم الغزاة الشماليين على استصحاب العنف معهم إلى جانب قليل جدًّا من الابتكار والتجديد. كما أنه ثمة وثائق دامغة تثبت حقيقة محاولة الصينيين إضفاء الجنسية الصينية على أهل منغوليا ومنشوريا. وبالمقابل، كانت قوانقزو (كانتون القديمة) ودلتا نهر بيرل، أول المناطق الصينية التي وطئتها أقدام الأوروبيين، حاملين إليها التقنية الحديثة والدين.

لقد تدفقت الأفكار تجاه الشمال حتى قبل وصول الأوروبيين. ففي حين استخدمت المواصلات البحرية في الجنوب الذي يعج بالبحار، انتقلت التقنية إلى الشمال لتحفر قنوات رئيسة. وغالبًا ما يكون استخدام الأسقف القرميدية

نصف الأسطوانية التي تستعمل على نطاق واسع في الشمال، قد استوحي من المباني الخيزرانية التي كانت تبنى في الجنوب، فيحتمي الناس بها من الشمس والمطر وغيرهما من العوامل الجوية. كما شهد الجنوب زراعة الأرز والشاي قبل الشمال، فانتقلت إليه من هناك.

بسبب التأثيرات الأوروبية التي ذكرت آنفًا، فلاعجب أن تكون ثورة تايبيه(*) الهادرة قد اندلعت أول ما اندلعت في الجنوب.

على صعيد آخر، يذكر أن صن يات – سين (Sun Yat –sen) قد تأثر بالتفكير الغربي لأول مرة في حياته في أثناء دراسته في المدرسة الطبية في هونغ كونغ التي سيطر عليها البريطانيون. وحتى اليوم، لا تزال الصناعة والأعمال التجارية وما يرتبط بهما من ثروة، تنتشر من المقاولين الذين يعملون في الجنوب إلى الشركات والمصانع التي تمتلكها الدولة في الشمال. ولأسباب منطقية جدًا، إذن شهدت قوانغزو افتتاح أول سوق حر للفلاحين في الصين عقب وفاة الرئيس ماو (Mao).

طريق الحرير:

كان طريق الحرير بمنزلة حلقة وصل مهمة للربط بين القوتين العالميتين في عهد المسيح. وطالما تبادل (ملوك الشرق الثلاثة) الهدايا عبر طريق أقل ما يقال عنه إنه كان منقطعًا تمامًا، يمتد لأربعة آلاف ميل بين شيان وروما. كان يمر عبر أفغانستان الحالية، ويحمل البضائع إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط في سورية. وفي حقيقة الأمر، لا يعرف أن أحدًا قد قطع كل تلك المسافة في أثناء ترحاله.

بناء على السياسة وما شابهها، فقد كانت البضائع تباع وتشترى عبر سلسلة من الوسطاء. ففي حين كان الحرير ينقل إلى الغرب، كان الذهب

(*) تايبيه: عاصمة جمهورية الصين الوطنية (تايوان)، تقع في الطرف الشمالي من جزيرة تايوان. سكانها 3.000.000 نسمة (المترجم).

والفضة والأصواف بجميع أشكالها، تنقل عبر ذلك الطريق. ولم تكن تلك الرحلات محصورة على البضائع فحسب، بل كانت الأفكار أيضًا تنتقل من هنا إلى هناك والعكس. إذ انتقلت البوذية والمسيحية إلى الشرق. وهكذا فعل ماركو بولو (Marco Polo) بين عامي 1271 و1297م. في حين اتجهت التقنية شرقًا واشتملت على صناعة الورق، الركاب(*)، النشابية(**)، العجلة التي تدفع باليد، المغناطيس، البارود وغيرها من الاكتشافات الحديثة آنئذٍ.

الاندماج والتفسخ:

إن مجرد قراءة متأنية في تاريخ الصين خلال الألف عام المنصرمة، تظهر بوضوح جلي ذلك التعاقب الدوري المنتظم: في حين يعمل قادة أقوياء على توحيد البلاد، تضمحل الأسر الحاكمة لتتلاشى نهائيًا، وهكذا. وصحيح.. قد لا تختلف الصين كثيرًا عن بقية أنحاء العالم في هذا الشأن، لكن الأمر ما زال تاريخًا غير مألوف لمعظم الأمريكيين.

بعد سقوط أسرة هان (Han) عام 220 ق. م، استغرق الأمر أكثر من قرنين لكي تتوحد البلاد مرة أخرى. على صعيد آخر، أدى انهيار أسرة تانق (Tang) عام 906م، لسبعين عامًا من الفوضى والاضطرابات. أما أسرتا جين (Jin) وصونق (Song) فقد تسببتا عام 1126م، في انشطار الإمبراطورية. أما جنكيز خان (Genghis Khan) فقد عمل على تقسيم الإمبراطورية. فجاء حفيده كوبلي (Kublai) ليوحدها من جديد تحت حكم المغول عام 1297م.

من جهة أخرى، سيطر الإنجليز على هونغ كونغ عام 1842م. وفي الفترة بين عامي 1851 و1864م، اندلعت ثورة تايبيه فحصدت أرواح عشرات الملايين

(*) الركاب: حلقة تعلق في السرج، يضع الراكب فيها قدمه، تسهيلاً لامتطائه الدابة (المترجم).

(**) النشابية: آلة حربية قديمة لإطلاق الحجارة والسهام والقذائف، شبيهة بالقوس والنشاب (المترجم).



مـن الصـينيين. وبحلول عام 1895م، احتـل اليابانيون تايوان. وما إن أشـرقت شـمس عام 1898م حتى احتل الروس منشوريا. ثم اندلعت ثورة الملاكمين(*) في الفترة بين عامي 1898 و 1900م، فقسـمت البلاد. ثـم جاء عام 1905م، ليحتل اليابانيون منشوريا. وفي عام 1911م، جاء القوميون فقسموا البلاد، وقد اندلعت الحرب للسـيطرة على الإمبراطور الأخير، اليابانيين والشيوعيين. ثم استعادت جمهورية الصـين الشـعبية التيبت (عام 1951 م) ثم هونغ كونغ (عام 1997م) ثم ماكاو (عام 1999م) وتجري الآن مفاوضات بشأن تايوان.

تجدر الإشـارة هنا إلى أن بعض كتاب الغرب قد ألفوا كتبًا حاولوا التأكيد من خلالها على أن الصـين سـوف تسير على نهج الاتحاد السـوفيتي. غير أن مرونة الصـين ومسـايرتها للتغـيرات العالمية لكـي تحافظ علـى كيانها كدولة موحـدة، تظل أبلغ درس في التاريخ، وربمـا كان الرهان الحقيقي الآن هو إعادة توحيد تايوان مع الأرض الأم (الصين) سلميًا(**).

الاجتياحات:

نسـتطيع أن نحصـي بين غزو المسـلمين لـ (قوانقزو) عام 658 م وهجوم اليابانيين في الفترة بين عامي 1931 و1937م، اثني عشر هجومًا عسكريًا أجنبيًا على الصين:

- التيبتيون: 763م.
- الجورشيديون: 1126م.

(*) جمعية سرية حاولت عام 1900م طرد الأجانب من الصين، وحمل المتنصرين الصينيين على الارتداد، وعرف الملاكمون بهذا الاسم لأنهم كانوا يمارسون الملاكمة وبعض الألعاب الجمبازية، اعتقادًا منهم أنها تكسبهم قوة خارقة، فلايؤثر فيهم حتى الرصاص (المترجم).

(**) كثيرًا ما ترد عبارة الأرض الأم أو الصين الأم في هذا الكتاب، ويقصد بها البر الصيني، أي جمهورية الصين الشعبية، بوصفها البلاد الأساسية التي ضمت إليها بعض البلدان (المترجم).

- المنغوليون: 1234 و1449م.
- البرتغاليون: 1535م.
- اليابانيون: 1592 و 1894م.
- المنشوريون: 1629م.
- الإنجليز: 1839 و 1860م.
- الفرنسيون: 1860م.
- الألمان: 1897م.

يلاحظ أن الولايات الأمريكية المتحدة ليست ضمن القائمة. أما اليوم فيستحيل أن تكون هناك قوة قادرة على غزو الصين أو حتى مجرد التفكير في هذا الأمر. خاصة إذا أدركنا أن الصين قد صنعت أول قنبلة نووية منذ عام 1964 م، كما أنها تمتلك تقنية صواريخ متقدمة جدًا، بالإضافة إلى أن جيشها النظامي يتكون من مليوني عنصر مدربين على أعلى المستويات. وعليه، يكون التفكير في الحرب ضد الصين كدولة لدولة نوعًا من العبث.

مرة أخرى، ومن خلال استقراء التاريخ، ندرك سبب خوف الصينيين من كل ما هو أجنبي وغريب عنهم. لكن على كل حال، من خلال عضويتها في كل من الأمم المتحدة ومنظمة التجارة العالمية، نستطيع أن نرى الصين الآن وهي تتغلب على تلك التجارب السيئة التي عاشتها خلال القرنين الماضيين، ربما بدأ يتسرب إليها نوع غير عادي من الأمان والاطمئنان. فإن كان الحال كذلك، فليس ثمة شك في أن تلك أخبار سعيدة للجميع.

الثقل السكاني:

تدعونا حالة الرهاب تلك، أو الخوف من الأجانب هنا في الولايات الأمريكية المتحدة، للاعتقاد بإمكانية عودة الصين لمغامرتها العالمية في يوم ما، التي كانت تسودها أيام حكم أسرة مينق (Ming). ولنستحضر تلك الأساطيل

الصينية الضخمة التي كانت تجوب منطقة المحيط الهندي بين عامي 1403 و1433م، وفي عام 1407م، اجتاح الصينيون فيتنام، فاحتفظوا بها لمدة واحد وعشرين سنة تحت سيطرتهم.

تعكس خلافات الصين الحالية مع الفيتناميين والفلبينيين حول بعض الجزر الواقعة في بحر الصين الجنوبي (Spratley Islands) نزعتها التوسعية الكامنة.

على كل حال، لقد أغفلت تلك النظرة الساذجة، المعضلة الأساسية التي تواجه حكومة الصين، تلك المعضلة التي طالما عانتها في السابق، ولا تزال تعيشها حتى اليوم، وستظل تلازمها دائمًا كظلها تمامًا: المحافظة على السلام والنظام بين هذا الكم الهائل من سكانها. ويلاحظ هنا أن الصين قد نجحت في القضاء على مشكلة المجاعة من خلال الثورة الخضراء.

أما مشكلة الزيادة المضطردة في عدد السكان، فقد تم علاجها، على الأقل مؤقتًا، عن طريق تطبيق سياسة طفل واحد فقط لكل أسرة في سائر أنحاء جمهورية الصين الشعبية.

أما المعضلة الحالية التي تؤرق السلطات الصينية، فتتمثل في أن (70%) من إجمالي عدد السكان الذي يقدر بـ (1.3) بليون، يقطنون في مناطق ريفية، حيث يتمركز معظمهم في وسط البلاد. على الرغم من أن أهم هجرتين في العالم اليوم تتجهان نحو المدن والمناطق الساحلية. الأمر الذي يفرض تحديات على السلطات الصينية، ليس للمحافظة على ثبات وتيرة النمو الاقتصادي المضطردة لتوفير فرص العمل في القطاع الخاص للملايين الذين تركوا العمل في القطاع الحكومي لأنه لا يرضي طموحهم فحسب، بل أيضًا لمواجهة هذا النوع غير المسبوق من الهجرة التي تتجه من وسط البلاد إلى المدن الساحلية. ولا شك أن هذا يجعل الصين في حاجة ماسة لكل ما يمكن أن تحصل عليه أو يتوافر لديها من دعم ومساعدة.

الخط الزمني لتاريخ الصين

ق. م	
نحو 1.5 - 0.5 مليون	أول اكتشاف لوجود الجنس البشري في الصين، قرب بيجينق، لانتيان، يوانمو وغيرها من مواقع أخرى.
نحو 80000	ظهور الإنسان العصري الذي يتميز بالعقل والحكمة في الصين.
نحو 7000	بداية عصر الزراعة والعصر الحجري الحديث (*).
نحو 2550	عهد الإمبراطور الأصفر (أسطورة).
نحو 2300	عهد الإمبراطور ياو (Yao) (أسطورة)
نحو 2200	عهد شن (Shun) (أسطورة).
نحو 2140	ياو (Yao) الأكبر يسيطر على الفيضان العظيم (أسطورة).
نحو 2100	بداية عهد أسرة شيا (Xia) (ليس من الثابت إن كان هذا حقيقة تاريخية أم أنه أسطورة كغيره).
نحو 2100	بداية العصر البرونزي الصيني (**).
نحو 1600	خلع تانق (Tang) الجهبذ، آخر ملوك أسرة شيا (Xia) ليؤسس أسرة شانق (Shang).
نحو 1300	أول ظهور لنقوش أسرة شانق (Shang) على العظام.
نحو 1100	عهد الملك وين (Wen)، ملك زو (Zhou).

(*) العصر الحجري الحديث: الفترة الأخيرة من العصر الحجري، ويبدأ نحو عام 1000 ق. م في الشرق الأوسط، وبعد ذلك بفترة في أماكن أخرى. ويتميز باختراع الزراعة وصنع بعض الآلات الحجرية المتطورة (المترجم).

(**) عصر البرونز: فترة من تاريخ البشرية، تقع بين العصر الحجري وعصر الحديد، سمي هكذا لتميزه باستخدام البرونز في صنع الأدوات والأسلحة، ويعتقد أنه بدأ في أوروبا نحو عام 3500 ق. م. وفي آسيا الغربية ومصر قبيل ذلك التاريخ (المترجم).

نحو 1050	قوات الملك وو (Wu)، ملك زو (Zhou) تلحق الهزيمة بقوات آخر ملوك شانق (Shang) في معركة ميو، لتعلن بذلك نهاية أسرة شانق (Shang).
نحو 900	ظهور البدو على ظهور الخيل في السهول شمالي الصين.
841	أول تاريخ مؤكد في تاريخ الصين.
نحو 820	شيانيون (Xianyun) يهاجم زو صين (Zhou China) (ربما اندفع المهاجمون من جهة الشمال).
771	اغتيال الملك يو (You) ملك زو (Zhou) في هجوم شنه خدم المتمردين والهمج على العاصمة الملكية في السنة الأولى لحكم الملك بنق (Ping) ملك زو (Zhou) الذي توج في عاصمة زو (Zhou) الشرقية قرب ليوانق الحديثة، في بداية فصلي الربيع والخريف.
نحو 650	بدأ الصينيون استخراج الحديد من المناجم.
552 أو 551	ميلاد كونفوشيوس (Confucius).
479	وفاة كونفوشيوس (Confucius).
463	بداية الحرب بين دول الصين.
نحو 450	بناء سور الصين العظيم في حدود دولة كي (Qi).
256	دولة كين (Qin) تقضي نهائيًا على مملكة زو(Zhou).
221	أكمل الملك زينق (Zheng) ملك كين (Qin) اجتياح كل دول الصين ليعلن نفسه أول إمبراطور لأسرة كين (Qin).
214	اكتمال بناء أول سور عظيم للصين.
210	وفاة أول أباطرة أسرة كين (Qin).
209	اندلاع الثورات ضد أسرة كين (Qin).
206	ظهور أسرة هان (Han) على مسرح الأحداث.
نحو 140	العقيدة الكونفوشيوسية تسيطر على فلسفة الدولة.
126-138	سفر زانق كيان (Zhang Qian) من الصين إلى باكتريا وسوقديانا.
نحو 90	سيما كيان (Sima Qian) تفرغ من تسجيل أول تاريخ مكتمل للصين.

ميلادي:	
23-9	عهد وانق مانق (Wang Mang) إمبراطور أسرة شيان (Xin) الوحيد، وإعلان كل الأراضي ملكًا للدولة.
نحو 65	وصول البوذيين إلى الصين.
105	كاي لون (Cai Lun) يلفت انتباه الإمبراطور للورق.
184	اندلاع تمرد أصحاب العمائم الصفراء.
220	أفول نجم أسرة هان (Han) إلى غير رجعة، وانقسام الصين إلى ثلاث دول.
نحو 250	بداية عهد الصينيين باحتساء الشاي.
نحو 399 414	رحلة فا شيان (Fa Xian) من الصين إلى الهند.
589	أسرة سيو (Sui) تعيد توحيد الصين من جديد.
605	اكتمال حفر أول قناة عظمى، تربط بين نهر يانقتيز والنهر الأصفر.
610	مد القناة العظمى جنوبًا حتى نهر كيانتانق.
نحو 629 645	رحلة شوان زوانق (Xuan Zhuang) من الصين إلى الهند.
641	زواج إحدى أميرات الصين بملك التيبت.
668	الصين تسيطر على كوريا.
701-690	عهد الإمبراطورة وو (Wu).
694	التخلي عن معاملة البوذية على أنها ديانة أجنبية دخيلة.
751	معركة نهر تالاز، وتحطيم المسلمين لقوة الصين في آسيا الوسطى.
777-755	تمرد آن لوشان (An Lushan).
758	حرق قوانقزو ونهبها على أيدي مسلمين من البلاد العربية والخليج الفارسي.
763	التيبتيون يغزون الصين ويبسطون سيطرتهم على شانقان لفترة محدودة.
843	الحكومة تبسط سيطرتها على أعداد كبيرة من الكنائس البوذية.
868	تاريخ طباعة أول كتاب في الصين لا يزال موجودًا يظهر عليه تاريخ طباعة.
875	اندلاع تمرد هوانق شاو (Huang Chao).

906	أفول نجم أسرة تانق (Tang) وتعرض الصين للانقسام مرة أخرى.
نحو 901	تداول النقود الورقية لأول مرة في الصين.
919	بداية استخدام البارود في الصين لأول مرة.
953-932	طباعة النص الكامل للكونفوشيوسية التقليدية.
975	إعادة توحيد الصين في عهد أول أباطرة سونق (Song).
1044	وصف البوصلة المغناطيسية في نص باللغة الصينية.
1069	إصلاح وانق آنشي (Wang Anshi).
1126	سقوط عاصمة أسرة سونق (Song) (كيفينق) في أيدي الغزاة المتطرفين الذين أسسوا أسرة جين (Jin) في شمال الصين.
1165 1161	قوات أسرة سونق (Song) المسلحة تصد هجمات أسرة جين (Jin).
1194	فيضان هائل أدى إلى تغيير في النهر الأصفر.
1234	المنغوليون يكملون غزوهم لشمال الصين ويحطمون أسرة جين (Jin).
1297-1271	ماركو بولو (Marco Polo) يصل الصين.
1279	خوبيلي خان (Khubilai Khan) يكمل اجتياح جنوب الصين.
نحو 1290	إعادة بناء القناة العظمى ومدها.
1294	جون (John) القادم من مونتيكورفينو يؤسس إرسالية مسيحية دائمة في بيجينق.
1368	ظهور أسرة مينق (Ming) في عاصمتها نانجينق.
1433-1403	تسيير رحلات السفن الشراعية الصينية الضخمة إلى كل من الهند وشرق أفريقيا.
نحو 1412	إعادة بناء سور الصين العظيم.
1421	أسرة مينق (Ming) تنقل مقرها الإداري إلى بيجينق، وربما تكون قد أرسلت أسطولاً لاكتشاف ساحل أمريكا.
1449	المنغوليون يجتاحون الصين ويقبضون على الملك السادس لأسرة مينق (Ming).
1514	سفن البرتغال تبلغ ساحل الصين.

1535	أول بداية لاستعمال البرتغاليين لـ (ماكاو).
1581	الإصلاح الضريبي: توحيد ضريبة الأرض وضريبة الماشية في نظام ضريبي واحد.
1592	اليابانيون يجتاحون كوريا.
1598	القوات الصينية تطرد اليابانيين من كوريا.
1601	تأسيس إرسالية ماتيوريسي اليسوعية في بيجينق.
1629	المنشوريون يستبيحون بيجينق.
1645 1629	تمرد لي زيشنق (Li Zicheng).
نحو 1640	الشاي يدخل أوروبا لأول مرة.
1644	لي زيشنق (Li Zicheng) يستولي على بيجينق، ويعزل أسرة مينق (Ming)، وو سانقوي (Wu Sangui) يدعو المنشوريين عبر سور الصين العظيم لمساعدته على طرد لي زيشنق (Li Zicheng) من بيجينق. والمنشوريون يوطدون أقدامهم في الصين وينقلون عاصمتهم إلى بيجينق.
1683	المنشوريون يستولون على تايوان، فيكملون بذلك اجتياحهم للصين.
1689	معاهدة نيرشينسك تساهم في حل المشاكل الحدودية بين روسيا ومنشوريا.
1720	المنشوريون يدمجون التيبت في إمبراطورية كينق (Qing).
1729	مرسوم إمبراطوري يحظر بيع الأفيون واستعماله.
1791-1790	قوات كينق (Qing) تخضع نيبال.
1794-1793	اللورد ماكارتني (Macartney) يقود أول سفارة بريطانية إلى الصين.
1804-1793	اندلاع التمرد الذي عرف بـ (تمرد زهرة اللوتس البيضاء).
1816	اللورد آمهرست (Amherst) يقود السفارة البريطانية الثانية إلى الصين.
1834	إلغاء احتكار شركة الهند الشرقية التابعة للحكومة البريطانية لتجارة الصين.
1839-1836	الصين تحظر تجارة الأفيون في قوانتزو.
1842-1839	حرب الأفيون الأولى.
1842	معاهدة نانجينق: تنازلت الصين بموجبها عن هونغ كونغ لصالح بريطانيا، وأضحت شانغهاي ميناء مفتوحًا أمام التجارة الأجنبية.
1864-1851	تمرد التايبيين يحصد أرواحًا بين عشرين إلى أربعين مليون صيني.



1853	متمرد و تايبيه يسيطرون على نانجينق.
1868-1853	تمرد نيان.
1842	شهد النهر الأصفر فيضانًا هائلًا أدى إلى تغيير مجراه، ففقد الجزء الشمالي من القناة العظمى مياهه لتسيل في كل اتجاه هدرًا دون الاستفادة منها.
1873-1855	تمرد المسلمين في يوانان.
1860-1857	حرب السهم أو حرب الأفيون الثانية.
1860	القوات البريطانية والفرنسية تدخل بيجينق وتدمر قصر يووان مينق يووان الصيفي.
نحو 1862	الإمبراطورة دواقر شي شيا (Dowager Ci Xi) تحكم سيطرتها على القوات في بلاط كينق (Qing).
1878-1862	تمرد المسلمين في شمال شرقي الصين.
1863	روبرت هارت (Robert Hart) يتبوأ وظيفة المفتش العام للضرائب في الصين.
1879	اليابان تضم جزر ريوكيو إليها.
1895-1894	الحرب الصينية اليابانية.
1895	معاهدة شيمونوسيكي: تم التخلي عن تايوان لصالح اليابان. الألمان يسيطرون على خليج جياوزو وكينقداو، ويجبرون الصينيين على تأمين عقد للإيجار.
1898	حصلت روسيا على حق استئجار ميناء آرثر وميناء داليان.
1898	حصلت بريطانيا على حق استئجار وهيوي والحدود الجديدة لـ (هونغ كونغ).
1898	أيام الإصلاح المئة.
1900-1898	اضطرابات الملاكمين.
1900	حصار البعثات الأجنبية؛ احتلال القوات الغربية لـ (بيجينق).
1905-1904	الحرب الروسية اليابانية؛ اليابان تسيطر على المصالح الروسية في منشوريا.
1908	وفاة الإمبراطورة دواقر شي شيا (Dowager Ci Xi) وتنصيب الإمبراطور بيو يي (Pu Yi) كآخر الأباطرة.
1911	الثورة الوطنية تخلع أسرة كينق (Qing) عن العرش.
1912	تنصيب يووان شيكي (Yuan Shikai) كأول رئيس لجمهورية الصين.

1914	اندلاع الحرب العالمية الأولى؛ اليابان تهاجم المصالح الألمانية في الشرق الأقصى وتستولي على كينقداو.
1915	يووان شيكي (Yuan Shikai) يوافق على الواحد والعشرين مطلبًا التي تقدمت بها اليابان.
1916	يووان شيكي (Yuan Shikai) يتنازل عن طموحه لكي يصير إمبراطورًا، ليموت بعد ذلك بوقت وجيز.
1917	اعتقال آخر أباطرة أسرة كينق (Qing) لوقت قصير؛ ودخول الصين الحرب العالمية الأولى ضد ألمانيا.
1919	حركة الرابع من مايو: الطلاب الصينيون يتظاهرون ضد معاهدة فيرساي.
1921	أول اجتماع عام للحزب الشيوعي الصيني.
1922	اليابان تعيد كينقداو للسيطرة الأجنبية.
1925	وفاة صن يات – سين (Sun Yat -sen)؛ شيانق كي – شيك (Chiang Kai-shek) يصير رئيسًا للحزب الوطني الصيني.
1926 1928	البعثة الشمالية تنجح في بسط سيطرة الوطنيين على معظم أنحاء الصين.
1930	بريطانيا تعيد ويهيوي للسلطات الصينية.
1931	اليابان تبسط سيطرتها على معظم أجزاء منشوريا.
1933	عصبة الأمم المتحدة تدين عدوان اليابان على الصين؛ اليابان تطرد من الأمم المتحدة.
1934	بيو يي (Pu Yi) يصير إمبراطورًا لدولة منشوكيو(*) التي كانت ألعوبة في أيدي اليابانيين.
1934-1935	المسيرة الطويلة(**).

(*) منشوكيو: دولة سابقة أقامها اليابانيون في منشوريا (1932 – 1945م) ونصبوا عليها إمبراطورًا شكليًا هو (شوان تونق) آخر أباطرة الصين (المترجم).

(**) تراجع إستراتيجي اضطر الجيش الصيني الأحمر إلى القيام به (1934 – 1935م) بقيادة ماو تسي تونق، من مقاطعة كيانغسي في الجزء الجنوبي الشرقي من الصين إلى مقاطعة شنسي في الجزء الشرقي من وسطها، وذلك في وجه تهديد القوات الوطنية الصينية، بقيادة شيانق كاي – شيك بالانقضاض عليه وإفنائه.

1936	حادثة شيان (Xian)؛ الحزب الوطني الصيني والحزب الشيوعي الصيني يكونان جبهة متحدة ضد اليابان.
1937	اندلاع الحرب بين الصين واليابان.
1941	مجموعة من الطيارين الأمريكيين المتطوعين يشكلون ما عرف يومئذٍ بـ (النمور الطائرة) في سماء كونمنق.
1945	الاتحاد السوفيتي يهاجم اليابانيين في منشوريا؛ واليابان تستسلم.
1946	عودة الحرب الأهلية بين الوطنيين والشيوعيين.
1949	إعلان تأسيس جمهورية الصين الشعبية.
1950	أمريكا ترسل أسطولها السابع إلى مضايق تايوان للحيلولة دون اجتياح الشيوعيين للجزيرة؛ والصين ترسل حشوداً إلى كوريا.
1951	قوات التحرير الشعبية تسيطر على التيبت.
1953	نهاية الحرب الكورية.
1957	حملة المائة زهرة.
1957 1959	الحملة ضد اليمينيين.
1958	القفزة العملاقة إلى الأمام.
1960	الخلاف بين الصين والاتحاد السوفيتي.
1962	الصين تلحق الهزيمة بالهند في الحرب بسبب الحدود بشأن التيبت.
1964	الصين تختبر قنبلتها النووية الأولى.
1966	اندلاع ثورة العمال الثقافية الكبرى.
1971	وفاة لين بياو (Lin Biao)؛ الصين تحتل مقعد تايوان في الأمم المتحدة.
1972	الرئيس الأمريكي نيكسون (Nixon) يزور الصين.
1975	زو إنلي (Zhou Enlai) يعلن خطوات التحديث الأربع.
1976	وفاة زو إنلي (Zhou Enlai)؛ وماو زيدونق (Mao Zedong).
1977	القبض على زعماء حرب العصابات الأربع.
1979	الولايات الأمريكية المتحدة تعترف رسمياً بجمهورية الصين الشعبية.
1981	تأسيس أول مناطق اقتصادية خاصة في الصين.

1989	قمع حركة الديمقراطية في بيجينق.
1993	السماح بتعويم سعر صرف اليوان الصيني(*).
1995	وفاة شين يون (Chen Yun) آخر أبرز معارضي ماو (Mao).
1996	الرئيس الأمريكي كلنتون (Clinton) يوافق بعد انتخابه لولاية ثانية على تبادل الزيارات بين بلاده والصين في عهد الرئيس جيانق زيمن (Jiang Zemin).
1997	وفاة دينق شياوبنق (Deng Xiaoping) في 19 من فبراير وهو في الثانية والتسعين؛ بريطانيا تعيد هونغ كونغ لجمهورية الصين الشعبية؛ الرئيس الصيني جيانق زيمين (Jian Zemin) يقوم بزيارة رسمية للولايات الأمريكية المتحدة، أبدى خلالها موافقته الضمنية على الاعتراف بخطأ استعمال القوات المسلحة في قمع مظاهرات عام 1989م.
1998	إحالة لي بنق (Li Peng) إلى المعاش بعد نهاية ولايته في رئاسة الوزراء؛ ليحل محله زو رونجي (Zhu Rongji)؛ الرئيس الأمريكي كلنتون (Clinton) يزور الصين.
1999	نحو ٢٥٠٠ شخص يلقون حتفهم في تايوان بسبب زلزال؛ الرئيس الصيني جيانق زيمين (Jiang Zemin) يزور المملكة المتحدة وبعض بلدان غربية أخرى؛ البرتغال تعيد ماكاو للصين.
2000	انتخاب شين شوبيان (Chen Shuibian) كأول رئيس لتايوان من خارج قومندانق؛(43.6%) فقط من الناخبين يشاركون في انتخابات مجلس هونغ كونغ التشريعي، حصل فيها الحزب الديمقراطي على (34.7%) فقط من أصوات الناخبين؛ إعدام شينق كيجي (Cheng Kejie) نائب رئيس مجلس الشعب الوطني بسبب قضايا فساد؛ الولايات الأمريكية المتحدة توافق على إقامة علاقات تجارية طبيعية دائمة مع الصين، مفسحة لها الطريق بذلك لكي تصبح عضوًا كامل العضوية في منظمة التجارة العالمية.
2001	الصين تحصل على العضوية الكاملة بمنظمة التجارة العالمية.
2008	بيجينق تشهد إقامة الألعاب الأولمبية في دورتها التاسعة والعشرين.
2010	شانغهاي تشهد إقامة المعرض العالمي.

(*) اليوان: وحدة النقد في الصين (يساوي مئة فن - Fen) كما يمثل أيضًا وحدة النقد في تايوان حيث (يساوي مئة سنت - Cent) (المترجم).

الهوامش:

1 – يكتب في بعض الأحيان كونق – فو – تزو (Kung – fu – tzu).

2 – بالطبع، ربما احتج البعض، ومعه كل الحق، مطالبًا بضرورة اعتبار الرئيس ماو (Mao) شخصية أساسية لتلك الحقبة. وعلى الرغم من أننا قد شهدنا له بالفضل في إشعال جذوة الثورة الشيوعية في القسم الأخير من هذا الفصل من الكتاب، إلا أنه كما في حالة وانق آن – شي (Wang An– shih) خلال عهد أسرة سونق، (Song) قد يؤدي المستشارون أدوارًا حاسمة في السياسة. وعليه، فيما يرقد الرئيس في ساحة تيانانمين، أوردنا هنا اسم أكثر مستشاريه إخلاصًا له، وإن كان هذا الأمر قابلًا للنقاش.

3 – تعد هذه الرحلات ضمن تلك المحاولات القليلة في تاريخ الصين الهادفة للتوسع خارج حدودها التقليدية.

4 – ربما كان هذا الاسم القديم بمنزلة نموذج لروايات جيمس كلافيل (James Clavell) الرائعة عن هونغ كونغ (Taipan and Noble House).







الفصل الثالث

التطور الاقتصادي ومسار الصين العظمى

لم يتنبأ أحد يومًا ما بتمدد اقتصاد الصين واندي, احه خارج حدوده على نحو ما نشهده اليوم. وحتى الآن، نستطيع القول إن ويليام أوفرهولت (William Overholt) ما زال على حق؛ إذ تنبأ في كتابه الذي أصدره عام 1993 م، تحت عنوان (صعود الصين)[1] (The Rise Of China) باقتصاد صيني حيوي لم يسبق له مثيل منذ قرن من الزمان. علمًا بأننا لم نضع في الحسبان يومئذٍ إقامة الألعاب الأولمبية في بيجينق (2008م) أو المعرض العالمي في شانغهاي (2010م).

في الجهة الأخرى، هناك آخرون لهم نظرة تشاؤمية مغايرة تمامًا لما ذهب إليه أوفرهولت (Overholt) كما فعل قوردن شانق (Gordon Chang) في كتابه الذي أصدره عام 2003م، بعنوان (انهيار الصين الوشيك)[2] (The Coming Collapse of China) وقد دعم منكسيم بي (Minxim Pei) وجهة النظر هذه في مقاله بمجلة السياسة الخارجية (Foreign Policy Magazine) حيث يقول:

(لقد بهر ازدهار الصين الاقتصادي المستثمرين وسحر لب العالم. لكن يقبع خلف هذه الطفرات الجديدة العالية وضجيج المصانع المنتجة، فساد مريع، هدر شديد للموارد وصفوة قليلة من الناس الراغبين في جعل الأمور تسير بشكل أفضل. ناهيك عن مسألة الإصلاح السياسي. إن مستقبل الصين سوف يكون مآله للفساد والاضمحلال والفوضى، وليس الديمقراطية)[3].

إذن، مــن الذي على حق؟ أصــحاب النظــرة الأولى، أم أصــحاب النظرة الأخيرة؟

بالطبع، إن تاريخ الصــين الذي يمتد خمســة آلاف عام، كما تم رصــده في الفصــل الثاني، يدعم كل واحــدة من وجهتي النظر الســابقتين. فدوران عجلة الحياة هي الفكرة الأساسية.

سوف ننظر في هذا الفصل للمسألة من خمس زوايا مختلفة. الأولى: النمو الاقتصــادي الهائل الذي تشــهده الدول المجاورة للصين، شــرق آسيا. الثانية: ســوف نلقي نظرة عامة على النمو الذي تحققه الصين اليوم، وما يعتري سبيله من مصاعب. الثالثة: مقارنة النمو الاقتصادي في الصين بما حققته رصيفاتها – الهند وروسيا. الرابعة: إلقاء نظرة سريعة لنماذج مماثلة لنمو مثير للجدل، وإن كان قد حدث في دول أصغر كاليابان، كوريا وتايوان.

وأخيرًا: التركيز على سلسلة من الموضوعات التي قد تؤثر في معدلات النمو الاقتصادي في الصين في السنوات القادمة.

صعود دول شرق آسيا:

كانت آســيا أســرع مناطق العالم نموًّا خلال الثلاثة عقود الماضية، كما أن هنالك معطيات ممتازة تؤكد إمكانية تصــاعد هذا النمو واستمراره على المدى البعيد[4]. وفي مطلع عام 1996م، بدأ عمالقة الاقتصاد في آسيا (اليابان، هونغ كونــغ، كوريا الجنوبية، ســنغافورة وتايــوان) يواجهون أزمة اقتصــادية حادة، أدت إلى انهيــار حقيقــي في مخزونهــا. كما اجتمعت عوامل أخرى ســاهمت في انكماشــها، أهمها: السياسة النقدية الصــارمة التي اتبعتها الحكومات، ارتفاع سعر شراء الدولار الأمريكي وتقليص حجم الواردات.

لكن على الرغم من تلك التدابير الاقتصادية، لا تزال توقعات صندوق النقد الدولي لعام 1993م، التي كان ينتظر فيها مساهمة اقتصاد آسيا بـ (29%) من الناتج العالمي بحلول عام 2000م، هدفًا قابلًا للتحقيق. فكمصادر لمنتجات جديدة وتقنية حديثة، وكأسواق مستهلكة هائلة، بدأت بلدان آسيا – خاصة تلك المطلة على المحيط الباسيفيكي، تبلغ ذروة ما خطط لها.

أما أسرع الاقتصاديات نموًّا في هذا الإقليم، فتضم المجموعة التي تعرف أحيانًا بـ (النمور الأربعة) أو (التنانين الأربعة): هونغ كونغ، كوريا الجنوبية، سنغافورة وتايوان. وغالبًا ما توصف تلك المجموعة بـ (معجزة شرق آسيا). فهي أول دول في آسيا مع اليابان، تنتقل من مرحلة الدول النامية لتنضم إلى قائمة الدول الصناعية الجديدة. فقد تحولت من دول مزودة بالقطع ومجمعة لمنتجات الدول الغربية، إلى منافس رئيس في صناعة الإلكترونيات، بناء السفن، المكائن الثقيلة وطائفة واسعة من المنتجات الأخرى. وبجانب هذا، فقد أضحت كل دولة عامل تأثير مهم في تجارة الدول الواقعة في محيطها واقتصادها.

على صعيد آخر، لقد حفز تسارع النمو الاقتصادي لمجموعة الدول المعروفة بـ (تجمع دول جنوب شرق آسيا) وتأثيرها الإقليمي خلال العقد الأخير، الممثل التجاري الأمريكي لمناقشة المسؤولين فيها سعيًا لإبرام اتفاقيات تجارية حرة معها – تجدر الإشارة هنا إلى أن سنغافورة قد وقعت على اتفاقية من هذا النوع مع أمريكا. إذ تمثل تلك الدول سوقًا رائجة للبضائع الصناعية، وكما سبقت الإشارة آنفًا، تعد أسواقًا استهلاكية جديدة.

لقد تحولت (النمور الأربعة) بسرعة شديدة إلى دول صناعية، ووسعت نشاطاتها التجارية لتصل إلى دول أخرى في آسيا. لقد كانت اليابان في الماضي رائدة الاستثمار في المنطقة، كما كانت بمنزلة مفتاح التطور الاقتصادي في الصين، تايوان، هونغ كونغ، كوريا الجنوبية وبعض دول أخرى في المنطقة. لكن،

بسبب القوة التي سرت في جسد اقتصاد الدول الآسيوية الأخرى وتحولها إلى دول صناعية، زادت أهمية تلك الدول (النمور الأربعة) لدول رائدة في مجال الاقتصاد. فمثلًا، أصبحت كوريا الجنوبية مركزًا للاتصالات التجارية بين جنوب الصين وجمهوريات آسيا التي كانت تابعة للاتحاد السوفيتي (سابقًا). لقد امتد تأثير كوريا الجنوبية حتى قوانقدونق وفوجيان، اللتين تعدان من أكثر المناطق الاقتصادية الصينية الخاصة إنتاجًا، كما ازدادت أهميتها التجارية في المنطقة في الوقت نفسه.

ماذا عن الصين؟

باستثناء الولايات الأمريكية المتحدة، لا يوجد سوق واحد في العالم أهم من الصين [5]، إذ تعد التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي شهدتها الصين منذ أن بدأت تسعى بجد ونشاط لإقامة علاقات اقتصادية مع العالم الصناعي، مثيرة بحق. فقد انتهجت الصين نظامًا اقتصاديًا مزدوجًا، جمع بين الاشتراكية والرأسمالية، الأمر الذي أدى إلى ازدهار اقتصادي، وأتاح مزيدًا من الفرص للاستثمارات الأجنبية، مما أدى إلى زيادة الناتج الوطني الإجمالي بمعدل (10%) سنويًا منذ عام 1970م. كما تنبأت معظم التحليلات بإمكانية تحقيق زيادة في الناتج الوطني الإجمالي بنسبة تتراوح بين (8 إلى 10%) خلال العشر إلى الخمس عشرة سنة القادمة. وهكذا سوف يكون الناتج الوطني الإجمالي للصين عام 2015م، مساويًا للناتج الوطني الأمريكي يومئذٍ.

يعتمد كل هذا النمو الاقتصادي على قدرات الصين على رفع القيود عن الصناعة، استيراد التقنية الحديثة، تخصيص الشركات الحكومية غير المنتجة المكتظة بالعمال والموظفين والعمل الدؤوب لتذليل كل الصعاب لجذب مزيد من الاستثمارات الأجنبية.

مــن جهة أخرى، ثمة حدثان مهمان حدثا عام 2000م، كان لهما أثر عميق في الاقتصــاد الصــيني: قبولها في منظمــة التجارة العالميــة، وموافقة الولايات الأمريكيــة المتحدة علــى إقامة علاقات تجارية طبيعيــة دائمة معها على قاعدة راسـخة. فقد أدى تمتع الصين بعضــوية منظمة التجارة العالمية إلى رفع جميع الحواجــز أمام اســتيراد البضــائع والخدمــات الأمريكيــة. وبالمقابل، صــارت الولايــات الأمريكية المتحدة مضــطرة الآن إلى التقيد بالسياســات التي تمكنها من الوصــول إلى الأســواق الأخرى التي تطبقها على الصين، لأكثر من عشرين عامًا، كما عليها العمل على المحافظة على علاقات تجارية طبيعية دائمة معها.

أخيرًا، بعد ســنوات من المماطلة والتســويف، بدأت الصين تذعن لشروط منظمــة التجارة العالمية. كما عقدت العزم الصــادق الــذي لا نكوص فيه، على خلق سوق اقتصادي مفتوح يتصل بالعالم كله.

يبقى الأمر الذي يشغل تفكير الكثيرين، هو إذا ما كانت الصين سوف تلتزم بقوانــين منظمة التجارة العالمية وشــروطها للحد مما تفرضــه مــن عوائق هائلة أمام البضــائع المستوردة [6]. إذ لم يتم تنفيذ الاتفاق بعد. وقد أثبتت التجربة مع اتفاقيات ســابقة أنه غالبًا ما يســتحيل حمل الدول للإذعان على الالتزام ببعض القضايا. فبعض ما تمنحه الصين من امتيازات هو مجرد صورة مكررة لاتفاقيات لم تحــظ بالاحــترام، تعود لعــام 1979م. وقد تعلمت الولايــات الأمريكية المتحدة مــن تجربتها مــع اليابان، أن الطريق ما زالت طويلة وغير ســالكة أمامها في هذا المجال. فربما كان الوعد بفتح الأسواق التجارية أمام الولايات الأمريكية المتحدة هو مجرد البداية لمجهود جبار ينبغي بذله قبل الوصول إلى مرحلة الالتزام التام بتطبيق قوانين منظمة التجارة العالمية وشروطها.

بســبب مساحة الصــين الهائلة، وتنوعها وتنظيمها السياســي، فمن الأفضل النظــر إليهــا كمجموعــة تتألف من خمســة أقاليم، أكثر من كونهــا دولة واحدة –

مجموعـة أسـواق إقليمية أكـثر من كونها سـوقًا واحـدًا. (تمت مناقشـة هذه الأقاليم بتفاصـيل وافية في الجزء الحادي عشر من هذا الكتاب)، إذ ليس ثمة إستراتيجية واحدة للنمو الاقتصادي في الصين. فلكل إقليم نظامه الاقتصادي الخاص الذي يختلف عـن أنظمة بقية الأقاليـم الأخرى. كما له أيضًـا نظامه الخاص للاتصـال ببقية الأقاليم، وكذلك الحال فيما يتعلق بالاتصـال مع بقية دول العالم. كما أن لكل أقليم أسـلوبه الخاص في الاستثمار، وفرض الضرائب، كمـا له طريقته الأساسـية المسـتقلة في الكيفية التي يحكم بها نفسـه. لكن، في الوقـت الـذي نجد أن كل إقليم منفصـل عن بقيـة الأقاليم الأخـرى بما يكفي للنظر لكل واحد منها على أسـاس أنه وحدة قائمة بذاته، يرتبط كل واحد منها بالحكومة المركزية في بيجينق.

من ناحية ثانية، أمام الصـين خطوتان مهمتان يجب عليها اتخاذهما إذا أرادت تمهيد الطريق أمام نموها الاقتصـادي: احترام حقوق الإنسان وإصلاح نظـام القانـون. فقد شـكل موضـوع حقوق الإنسـان عقبـة كأداء مـع الولايات الأمريكيـة المتحدة بسـبب انعدام الحريات الدينية في الصـين، مذبحة سـاحة تيانانمين عام 1989م، سجناء الرأي ومعاملتها لـ (التيبت).

يعكـس قـرار الحكومة الأمريكيـة بموافقتها علـى إقامة علاقـات تجارية طبيعية دائمة مع الصين، بشكل ما، أهمية الصين المتنامية في السوق العالمي. كما تعكس أهمية التجارة معها أيضًـا أن الأمر أهم مما يمكن تعريضه للخطر بسبب الاختلاف حول قضية، أيًا كانت. لكن على الرغم من ذلك، بقي الموضوع حساسًا داخل الولايات الأمريكية المتحدة من جهة، وبينها وبين الصين من جهة أخرى.

في غضـون ذلك، بدأت الصـين تعيد اسـتثمار نفسـها. ففي عام 2002م، اختـار المجلس الوطني بالحزب الشـيوعي هيـو جنتاو (Hu Jintao) سـكرتيرًا عامًـا. لكـن، ربما كان الأهـم من هذا كله هـو قبول رجال القطـاع الخاص في

الحزب. لأنه يعكس تحولاً هائلاً في موقف الحزب الشيوعي الصيني، من حزب يمثل العمال والفلاحين فقط، إلى آخر يضم تحت مظلته الشعب بكل فئاته.

لكن، على الرغم من كل تلك التغيرات الإيجابية، لا تزال السفارة الأمريكية في الصين تتلقى مزيدًا من الشكاوى من الشركات الأمريكية العاملة في الصين التي تعبر فيها عن عدم رضائها عما يوفره لها القانون الصيني من حماية. فقد اكتشفت تلك الشركات أن قوانين حماية الإنتاج الوطني والمحسوبية، قد جعلت عملها صعبًا خارج المدن الرئيسة مثل بيجينق، شانغهاي وقوانقزو، حتى وإن كان لهم شركاء محليون. فقد اكتشفت شركات كثيرة أن الشريك الصيني الذي يحظى بغطاء سياسي يستطيع أن ينهب شريكه الأجنبي بكل سهولة، وحتى عندما تعرض الشكاوى أمام المحاكم، يستطيع ذلك النفوذ السياسي الذي يحظى به، التأثير في سير العدالة للحكم لصالح الشريك المحلي.

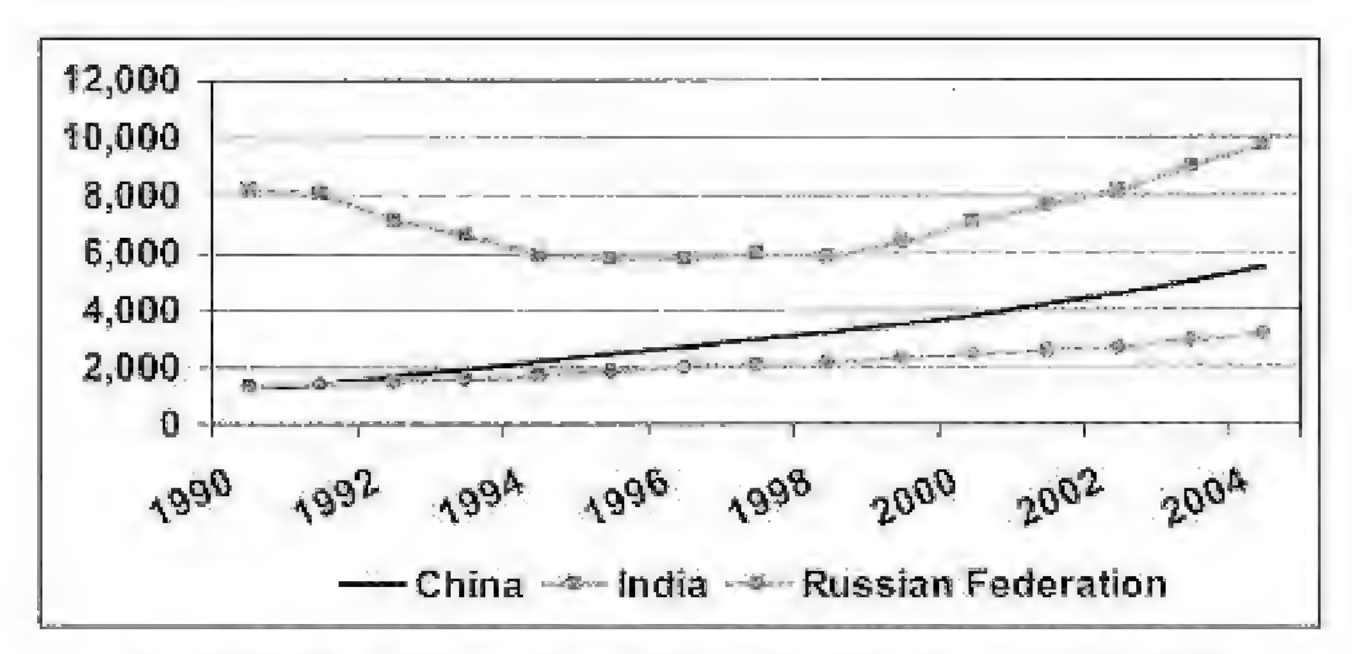
في الحقيقة، هنالك نوعان من الإنسان الصيني: الأول: بيروقراطي، مثير وجشع يحب المال حبًا جمًا، لايشبع أبدًا من جمعه بكل الطرق الممكنة وغيرها. الثاني: يشكل سوقًا جديدة رائجة تلقف كل ما يلقى في وجهها. فهناك إذن الصين القديمة التقليدية، حيث يخطط منتقدو الحزب الشيوعي لسيطرة الدولة على الشركات المتعددة الجنسيات، خاصة تلك التي تعمل في مجالات سياسية مهمة، كصناعة السيارات [7]، المواد الكيميائية وأجهزة الاتصالات. الأمر الذي أدى إلى تعدد أساليب ابتزاز الشركات من المسؤولين المحليين، تأرجح الرؤى السياسية وحجة إدخال التقنية إلى الشركاء المحليين غير الصادقين. لكن بالمقابل، هنالك الصين الجديدة التي تشهد سوقًا جديدة رائجة تنمو بسرعة فائقة، تنتشر فيها المحال التجارية بكثرة، فتجد فيها كل شيء، من الأطعمة السريعة حتى الشامبو. وقد خفت القيود كثيرًا حتى في المجالات التي كانت تحاط بأسوار جديدة، بفضل تحدي السلطات المحلية، تنافس الوزارات وحتى العسكر، لطبقة التكنوقراط في بيجينق.

قطعًا، لا توجد صناعة تظهر بوضوح جلي تغير القوانين أكثر مما تفعل تقنية المعلومات. لقد حد المخططون الصينيون في وقت ما من استيراد أجهزة الحاسوب الشخصية وبرامجها وملحقاتها بهدف تعزيز الصناعة المحلية. غير أن الصينيين يفضلون البضاعة المستوردة عن طريق التهريب على الصناعات المحلية. فاضطرت بيجينق أخيرًا لتخفيف القيود، فسيطر نظام ميكروسوفت الآن على الساحة. وهو سوق تستدعي خطة تحديثه استيراد أجهزة ومعدات تقنية تزيد قيمتها على مائة بليون دولار أمريكي سنويًا، مع إنفاق على التجهيزات يبلغ نحو (250) بليون دولار خلال بقية هذا العقد. إذن، هذا هدف يستحق ما يبذل في سبيله من جهد. وفي الحقيقة، اعتلت الصين اليوم المرتبة الثانية، بعد الولايات الأمريكية المتحدة، كأكبر سوق لأجهزة الحاسوب الشخصية.

السباق بين الصين، روسيا والهند:

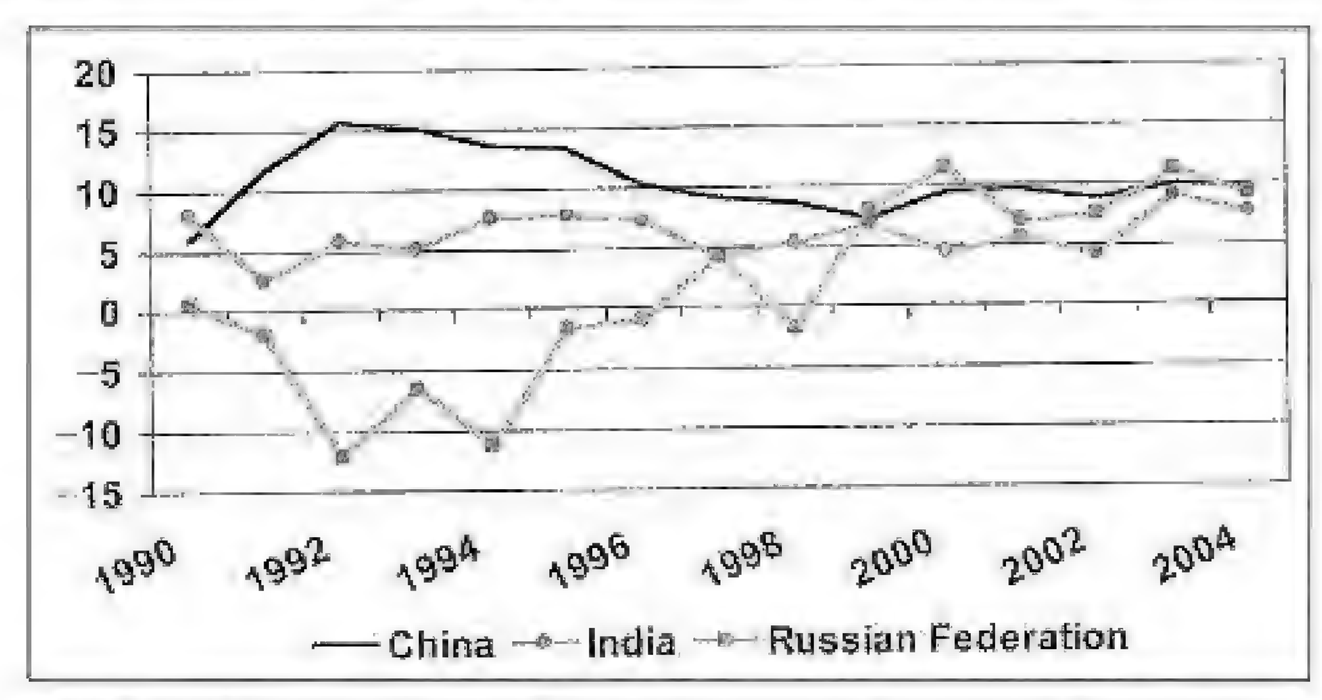
خلال ثمانينيات القرن الماضي، غير اليابانيون لعبة السباق العالمي من سباق محصور في المجال العسكري فقط، إلى آخر يشتمل على الأداء الاقتصادي بشكل عام. وفي نهاية العقد، كان اليابانيون قد تمكنوا من كسب اللعبة الجديدة. وقد عدوا ضمن ما حققوه ساحل بيبل ومركز روكفلر وما شابههما. وفي عام 1989م، خرجت روسيا تمامًا من اللعبة العسكرية، لتشترك مع الصين في واحدة من أكبر التجارب الاقتصادية والسياسية في التاريخ. وهكذا أجريت مناقشات مستفيضة حول ماهية الطريقة المباشرة لتحقيق الازدهار الاقتصادي: هل هي «نظرية الانفجار» التي تعني التحرر الديمقراطي الروسي في السياسة الاقتصادية، أو سياسة التدرج الصينية المحكمة فيما يتعلق بتنفيذ الإصلاحات على جميع المستويات؟

لقد أضفنا (إلى الصين وروسيا) في الشكلين (3.1) و(3.2) الهند الجديدة. ومن خلال الإنترنت، استطعنا -نحن الأمريكيين- «رؤية» الطرف الآخر من الكوكب، وما تزخر به البلاد الأخرى التي تضم بلايين السكان من إمكانيات تسويقية وتنافسية.



الشكل (3.1) إجمالي الناتج المحلي للشخص الواحد وتكافؤ القوة الشرائية (وفق المعدل العالمي اليوم بالدولار الأمريكي).
(المصدر: مؤشرات التنمية العالمية)

إن المقياس الذي تستعمله لقياس مدى التطور الاقتصادي - حجم الإنتاج الوطني لكل فرد وفق القوة الشرائية - يعد أفضل معيار لنوع الحياة التي يتيحها الاقتصاد للشخص المتوسط الدخل. لكن لا بد من كلمة تحذير هنا — إذ يجب نثر ذرات من الملح على كل الأرقام الإحصائية القادمة من العالم الثالث وعدم تصديقها على عواهنها. بالطبع، قد تجد هنالك أسبابًا منطقية تدفع الصين للمبالغة في الحديث عن ارتفاع معدلات نموها الاقتصادي، وبالمقابل، قد تجد أن هنالك أسبابًا منطقية أيضًا تدفعها للعكس تمامًا. فالفكرة الأساسية إذن تكمن في أن الإحصائيات الصينية عمومًا غير موثوق بها؛ لأنها عرضة للمناورات السياسية.



الشكل (3.2) إجمالي الناتج المحلي للشخص الواحد وتكافؤ القوة الشرائية - النسبة المئوية للتغير (وفق المعدل العالمي اليوم بالدولار الأمريكي).
(المصدر: مؤشرات التنمية العالمية)

لقد حصلنا على كل تلك المعلومات من بنك معطيات مؤشر النمو العالمي الذي يديره البنك الدولي. لكن حتى هذه المعلومات يجب التعامل معها على أنها غير دقيقة كما ينبغي - فهي على كل حال، أفضل شيء متاح.

بالنظر إلى الشكلين (3.1) و(3.2) نجد أن روسيا قد بدأت صاعدة، غير أنها تعثرت بشكل مريع خلال مطلع تسعينيات القرن الماضي، وبالطبع خلال عام 1998م، ويعد أداؤها الاقتصادي الكئيب عام 1998 م، مصدر النكتة المالية الوحيدة التي سمعناها في حياتنا: «هل تعرف الفرق بين الدولار وبين الروبل؟ لقد كان الروبل في عام 1998 م دولارًا».

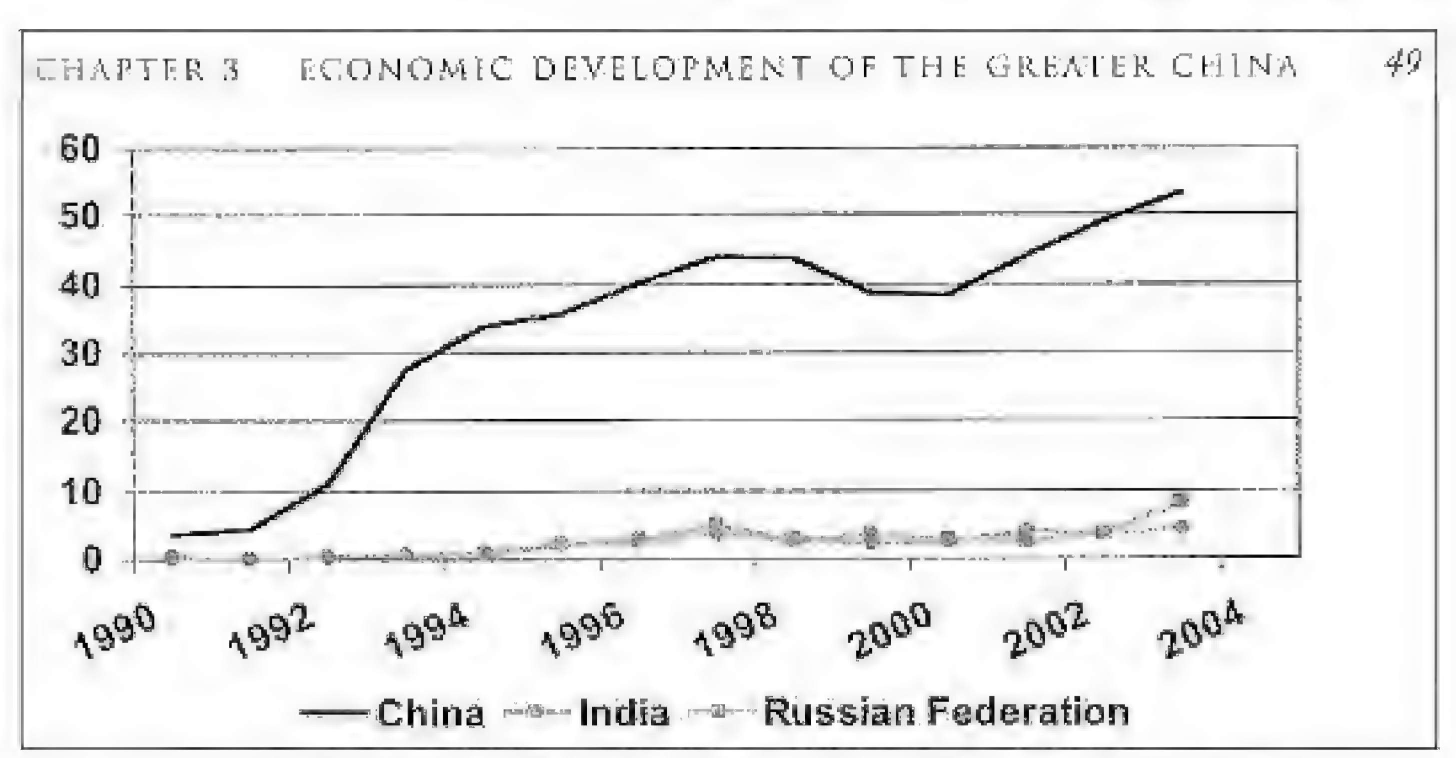
لقد تأرجح النمو الاقتصادي الهندي حول نسبة (5 %) في حين تأرجح النمو الاقتصادي الصيني حول نسبة (10 %) خلال تلك الفترة. لكن عمومًا، ما زال الروس يسيطرون على اللعبة، وما زال مسارهم حتى الآن في القرن الحادي والعشرين هو مسار الصين نفسه. وعليه، فقد بلغ متوسط الدخل الروسي السنوي عام 2005 م، (9.863) دولارًا أمريكيًا؛ أما متوسط الدخل الصيني السنوي، فقد بلغ (5.495) دولارًا؛ مقابل (3.115) دولارًا لمتوسط الدخل الهندي السنوي. وبالمناسبة، بلغ متوسط الدخل الأمريكي السنوي في تلك السنة ذاتها (39.618) دولارًا أمريكيًا.

يمكن رؤية الفرق الشاسع بين اقتصاد الدول الثلاث من خلال الشكل (3.3) إذ يبدو حجم النمو في صافي تدفق الاستثمارات الأجنبية المباشرة في الصين مدهشًا. وفي الحقيقة، بالرجوع إلى سنة 2003 م، وهي السنة الأخيرة التي أعدت فيها كل تلك الدول تقارير عن نموها الاقتصادي، نجد حجم الاستثمارات الصينية الخارجية المباشرة (54) بليون دولار، فبزت الصين بذلك حتى الولايات الأمريكية المتحدة التي بلغ حجم استثماراتها الخارجية المباشرة للسنة نفسها (40) بليون دولار أمريكي[8]. أما أفضل حجم استثمارات

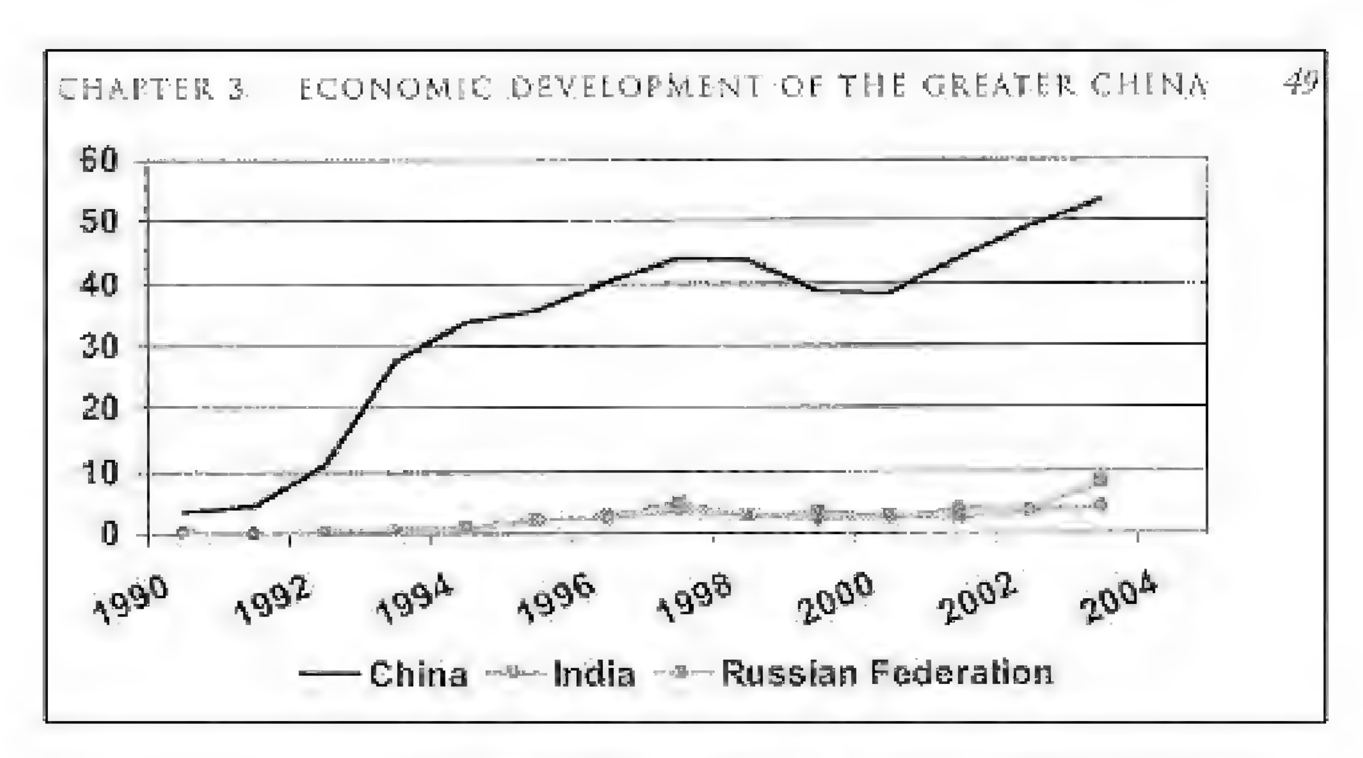
خارجية مباشـرة حققتها الصـين، فقـد كانت في عـام 2005 م، حيث تجاوزت الستين بليون دولار. ومثلما ترى في الشـكل (3.3) لم يبلغ حجم الاسـتثمارات الروسـية أو الهندية المسـتوى نفسـه أو حتى قريبًا منه. وعليه، طالما كان حجم الاستثمارات الخارجية هو المؤشر الأساس للتطور الاقتصادي، فلن يكون سهلًا على روسيا والهند أن تبقيا على اقتصادهما في وضع جيد.

بالطبع، لدى الصـين فرصـة عظيمة لتنمية اسـتثماراتها الخارجية عبر البحار. وقد عمل الصـينيون لتعزيز الاسـتثمارات بالعملة الصـعبة في المملكة الوسـطى. إذ عملـت هونـغ كونـغ دائمًا لخدمـة هذا الهـدف، غـير أن تايوان والصينيين في الشتات الذين يعيشون في كل أنحاء العالم، قد ساهموا في تحقيق تلك الغاية بدرجة كبيرة جدًا. فمن أبرز سـمات السياسـة الاقتصادية العالمية، أن الهجرة تمهد الطريق للتجارة وتدفق رأس المال.

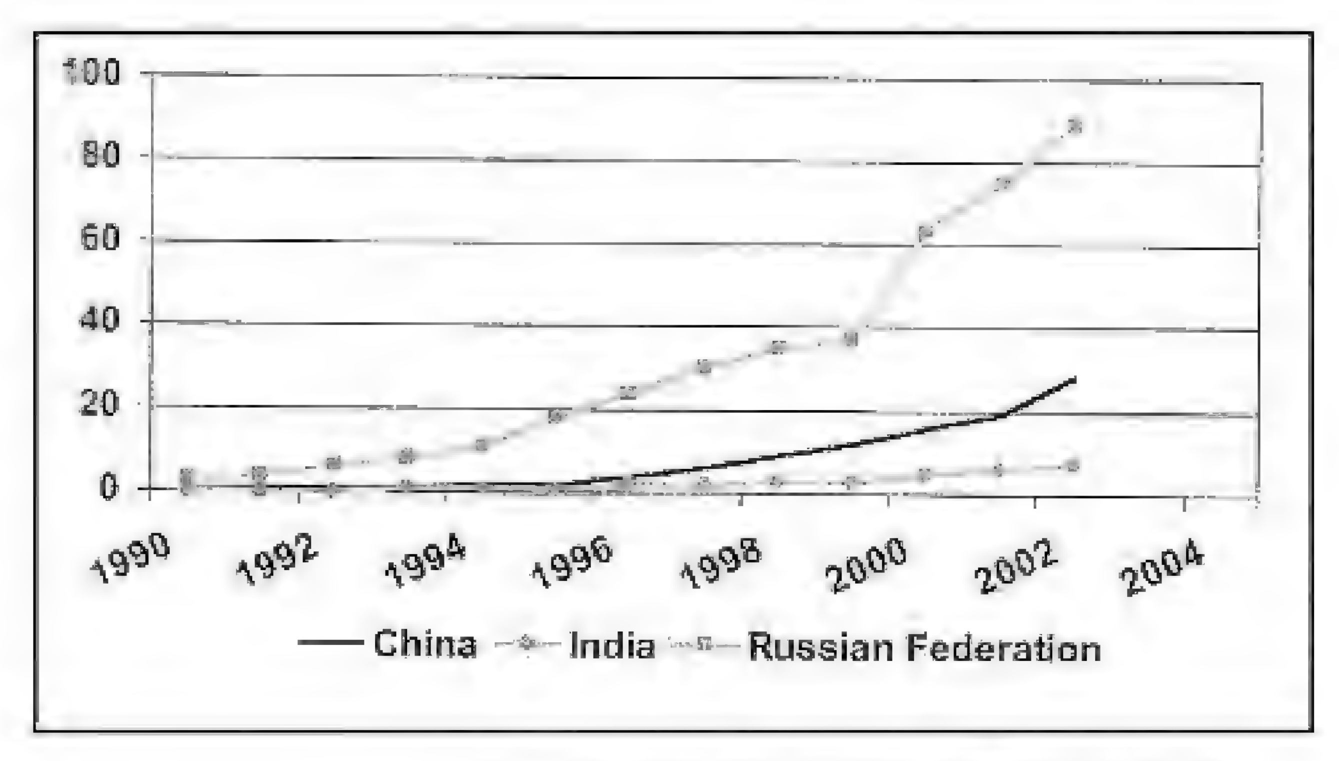
مـن جهة أخـرى، تعد المعلومات الأساسـية الموثقة مؤشـرًا مهمًـا للتنمية الاقتصادية. إذ يوضح الشكلان (3.4) و (3.5) مدى انتشار أجهزة الحاسوب الشخصـية والهواتف النقالة في البلدان الثلاثة (الصين، الهند وروسيا)، ومن الواضح أن الأجهزة قد كسبت السباق في هذا المضمار.



الشكل (3.3) الاستثمارات الخارجية المباشرة، صافي الأموال المتدفقة
(ميزان المدفوعات، الدولار الأمريكي)
(المصدر: مؤشرات التنمية العالمية)



الشكل (3.4) أجهزة الحاسوب الشخصية (لكل 1000 شخص)
(المصدر: مؤشرات التنمية العالمية)



الشكل (3.5) الهواتف النقالة (لكل 1,000 شخص)
(المصدر: مؤشرات التنمية العالمية)

مع أن مشتريات الصينيين من أجهزة الحاسوب (IBM) الشخصية سوف تساعدهم بكل تأكيد في سباق التقنية، إلا أن ما تفرضه الحكومة من رقابة صارمة يشكل عائقًا حقيقيًا أمام مسيرة التطور الاقتصادي مستقبلًا.

أخيرًا، سيكون لجودة أنظمة التعليم الأثر الأكبر في مسار التنمية الاقتصادية لهذه الشعوب الثلاثة. ووفقًا لمعظم المصادر، تأتي الهند في المقدمة

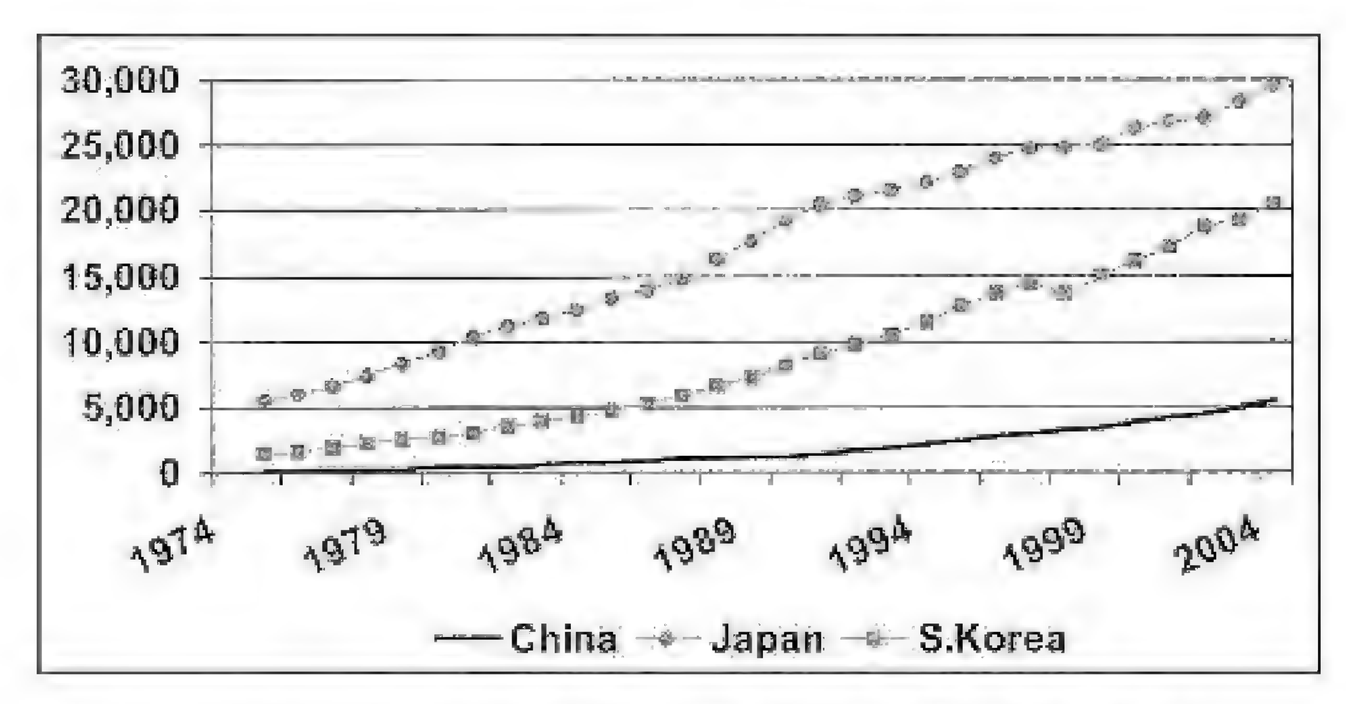
في مجـال التعليم العـالي. إذ أفادت ديانا فاريـل (Diana Farrell) مديرة معهد ماكنسـي العالمـي، أن الهند تؤهل أعـدادًا كبيرة من الشـباب المحترفين، فتدفع بهم سنويًا إلى سوق العمل أكثر بكثير مما تفعل الصين [9]. لكن مع ذلك، تشهد الجامعات الصينية نموًا مضطردًا. فمن الناحية العملية. تشهد مدارس التجارة وإدارة الأعمال في الصـين نموًا هائلًا. لكن، مع ذلك كله، تعد الهند أكثر الدول الثلاثة التي تمتلك رصيدًا وافرًا من التعليم التجاري يعود إلى عهد سحيق.

اليابان وكوريا الجنوبية نموذجًا:

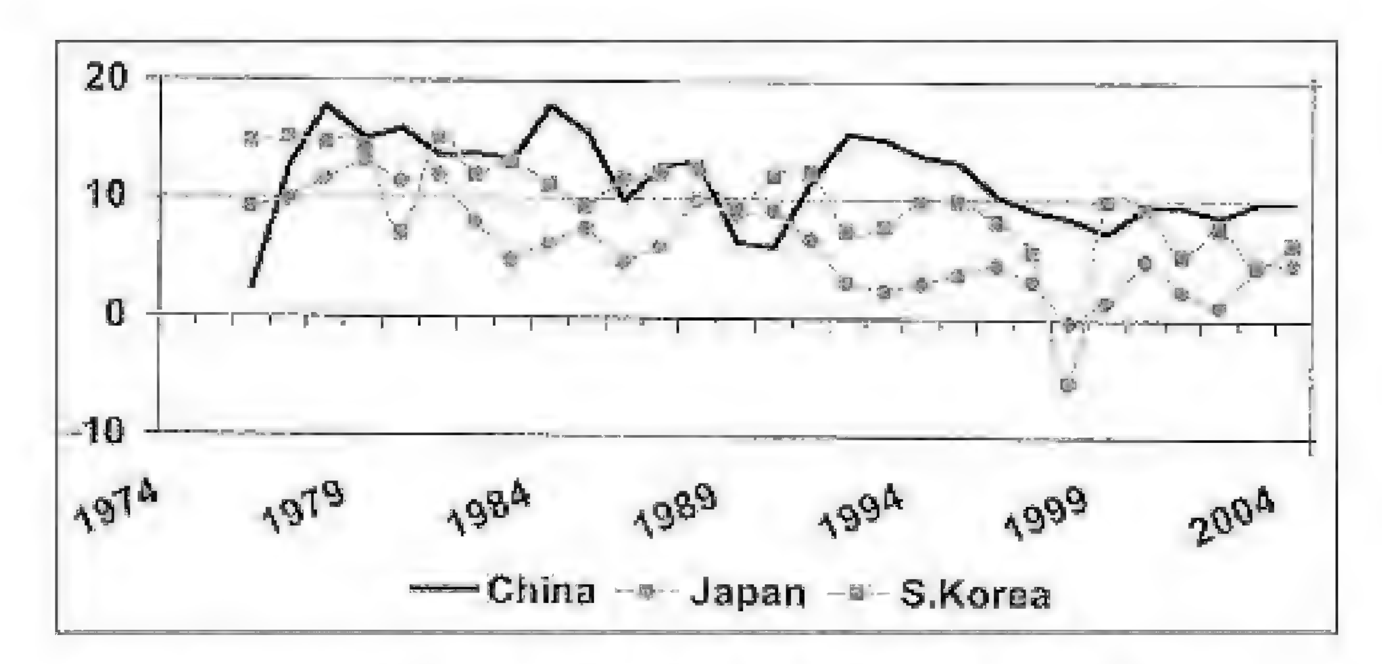
صـحيح.. إنه لأمر جد صـعب أن يحافظ المرء على نسبة نمو تبلغ (10%)، إذ تؤكد لنا مجرد نظرة خاطفة لجيران الصين القريبين، كم أن هذا الأمر فعلًا صعب ومعقد. (انظر الشـكلين 3.6 و3.7) اللذين يوضحان نمو اقتصاد البلدان الثلاثة (الصين، اليابان وكوريا الجنوبية) بثبات خلال العقود الثلاثة الأخيرة.

بالطبـع، لن تسـتطيع حتـى رؤية مـا كان يعرف بـ (توعـك اليابان) خلال تسـعينيات القرن الماضـي؛ لأن معيارنـا يعنى بمعدلات نمو السـكان والانكماش الاقتصـادي. وقد عانت كل من كوريا الجنوبية واليابان كسادًا اقتصاديًا بسبب الأزمة الاقتصـادية التي حلت بالدول الآسـيوية عام 1997م. لكن، بسـبب قدرة اليابان على المحافظة على ثبات اقتصادها الوطني، استمر متوسط معدل اقتصاد الفرد في التحسـن من منتصف سـبعينيات القرن الماضي حتى الوقت الحاضر، مع فـترة ركود واحدة، هبط فيها معدل نمو اقتصـادها إلى (-033.%). خلال عام 1999م. وبالطبع. كان ركود كوريا الجنوبية الاقتصادي في أثناء تلك الفترة حـادًا جدًا، غير أنها تمكنت من اسـتعادة عافيتها بالسـرعة ذاتهـا التي انحدر فيها اقتصادها إلى تلك الهاوية. وبالمقابل، واجهت الصين تلك العاصفة بشكل أفضل. وعليه، تبشر هذه المعلومات بقدرة الاقتصاد الصيني على المحافظة على معدل نمو ثابت، حتى إن كان أقل من نسبة الـ (10%).

حسنًا، ربما احتاج الأمر إلى توضيح هنا: مقارنة بمعدل النمو الاقتصادي الثابت الذي تحققه الجارتان الصغيرتان، نجد أن معدل النمو الاقتصادي الصيني أكثر تقلبًا مما يبدو لنا في الظاهر؛ لأن معظم النمو في الصين يتمركز عند الساحل وحول المدن الكبيرة. كما أن معظم المواطنين ما زالوا محجمين عن المشاركة.



الشكل (3.6) إجمالي الناتج المحلي للفرد الواحد وتكافؤ القوة الشرائية.
(التداول العالمي بالدولار الأمريكي)
(المصدر: مؤشرات التنمية العالمية)



الشكل (3.7) إجمالي الناتج المحلي للفرد الواحد وتكافؤ القوة الشرائية – تغير النسبة المئوية (وفق المعدل العالمي اليوم بالدولار الأمريكي).

(المصدر: مؤشرات التنمية العالمية)

وعليه، فإن ما يقدر بمعدل نمو يبلغ (10%) للدولة كلها، قد يفهم على أنه معدل نمو يتراوح بين (15%) و(20%) لبعض أجزاء الدولة، وبالمقابل، قد يعني أنه أقل من ذلك لبعض أجزاء أخرى من البلاد. وفي جميع الأحوال، لا يمكن المحافظة على هذا المعدل من النمو.

بالطبع، يعد انهيار سوق العقار في شانغهاي عام 2006م، أول نذير شؤم بتلك المشكلة. وتجدر الإشارة هنا إلى أن سوق شانغهاي العقاري هذا أكثر أسواق العالم رواجًا وحركة دائبة لا تعرف السكون. وقد تغيرت الأشياء على الأقل مؤقتًا، إلى الركود والجمود الحاد، إذ انخفضت أسعار بعض الشقق بمقدار الثلث. ولأول مرة تنقلب تجربة رهن السكن الشعبي في شانغهاي رأسًا على عقب. وأكثر من ذلك، كان في شانغهاي وحدها نحو مليون وحدة سكنية قيد الإنشاء. وأول ما يتداعى إلى الذهن من أمل ساعة إعداد هذا الكتاب، ألا يستشري هذا المرض الصيني الجديد الذي جعل الصينيين يبالغون في البناء، فيعم المدن الكبرى الأخرى.

ثم جاء دور إسبانيا عام 1993م:

انتشر في شوارع برشلونة عام 1992م، قميص شعبي بأكمام قصيرة عليه صورة شخص إسباني وجيوب بنطاله إلى الخارج، ويقول التعليق المصاحب: «إسبانيا 1993م».

ربما تذكرون أن دورة الألعاب الأولمبية لعام 1992م، وكذلك المعرض العالمي للعام نفسه، قد أقيما في برشلونة وسيفيل على التوالي. لقد احتفل العالم بهاتين المناسبتين المدهشتين واستمتع بهما؛ لأن الإسبانيين قد أنفقوا عليهما بسخاء منقطع النظير. يا لهما من فييستا(*)! وفي الحقيقة، أنفق الإسبانيون على تلك المهرجانات إنفاق من لا يخشى الفقر أبدًا، فتأثر الاقتصاد في فترة

(*) الفييستا: عيد قديس تحتفل فيه إسبانيا وأمريكا اللاتينية بالمواكب والرقص (المترجم).

وجيـزة وانعكس ذلك في معاناة الشـعب. وانخفض معدل نمـو البلاد التقليدي مـن (6%) إلى (صـفر في المائة) بحلول عـام 1993م. إذن، من فكروا في ذلك القميص الشعبي، ذي الأكمام القصيرة، كانوا على حق فعلًا.

حسـنًا، لنقفز الآن قفزة عالية لنطل على أولمبياد عام 2008م، في بيجينق والمعرض العالمي لعام 2010م، المزمع تنظيمه في شـانغهاي. فهل يا ترى سـنرى أفكارًا أخرى عن قمصان شعبية جديدة بأكمام قصيرة نحو عام 2011م؟

بالطبع، ليس خافيًا على أحد أن الصـين قد اسـتهلكت نصف إنتاج العالم من الأسمنت والحديد لكي تعد نفسها لتنظيم تلك الاحتفالات المدهشة في نهاية العقد الحالي. وقطعًا ستشـهد البلاد عام 2011م، فترة ركود اقتصـادي بسبب الإنفاق الهائل على التجهيزات الأولية لإقامة تلك الاحتفالات. لكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا: كم يكون مقدار ذلك الركود يا ترى؟

هل يؤثر كساد الاقتصاد الأمريكي في الصين؟

لقد سبق أن تحدثنا عن فتور سوق العقار في شانغهاي، لكن يا ترى ماذا عن الحال في الولايات الأمريكية المتحدة؟ لا شك في أن الشيء الوحيد الذي أثقل كاهل اقتصـادنا بالديون وجعله عائمًا، هو هذا الارتفاع الجنوني، غير المسبوق، في سعر العقار هنا. فقد اندفع الجميع لاقتراض الأموال ورهن البيوت للبنوك والشـركات بدلًا من اقتناء السـيارات وشراء الثياب. فأدى اسـتهلاكنا إلى نمو عادي أو حتى ضـئيل في اقتصـادنا، في حين أدى إلى نمو مدهش في حجم الواردات من الصين. وبالطبـع، نتوقـع حركة دائبـة عند موانئنا البحرية في السـاحل الغربـي، إذ تأتي السفن من الصين محملة بالبضائع لعرضها في رفوف أسواق (Wal – Mart).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن تعقيد مشكلة الشرق الأوسط يعد الشيء الوحيد الذي حال دون اهتمام الكونجرس بتوطين التجارة وتعزيزها في ظل هذا العجز



المريع في التجارة مع الصين. لكن في حال معاناة الاقتصاد انكماشًا شديدًا في أسعار العقار، فسوف تكون التجارة مع الصين هي أول الضحايا. هذا رهان أكيد. فمن ثَمَّ يتقلص حجم الواردات من الصين، الأمر الذي يؤدي إلى تسريع وتيرة تباطؤ النمو فيها.

ثمة مشكلة أكثر تعقيدًا تلوح في الأفق – سوف يؤدي هذا إلى تقاعد رجال الأعمال الأمريكيين المدللين الباحثين عن الثراء. وآنئذٍ فلن يكون لنظامنا الصحي ونظام معاشاتنا أي جدوى بعد عام 2010 م، هذا إن كان لهما ثمة جدوى اليوم. وسوف تتزامن نهاية المهرجانات الوطنية في بيجينق (أولمبياد 2008 م) وشانغهاي (المعرض العالمي 2010 م) مع بداية الاضطراب الاقتصادي الذي يتسبب في إفلاس المتقاعدين... يا للهول!

الفرصة الخضراء:

بالعودة لأولمبياد عام 2008م، لك أن تتساءل مندهشًا عما إذا كان العداءون المشاركون في سباق الماراثون سوف يستطيعون قطع المسافة المطلوبة في ظل تلك العواصف الترابية والأبخرة والأدخنة المتصاعدة صيفًا. فهل يا ترى سوف تحمل الريح معها الغبار والأتربة من صحراء قوبي وهي تجرف ما ينبعث من عوادم السيارات من تلوث؟ تلك حقًّا معضلة معقدة. لا شك في أن حاجة الصين المتعاظمة إلى الطاقة تدفع بأسعار الوقود لمستويات أعلى. لقد عزموا في البداية على استخدام الفحم الحجري للحصول على الطاقة، لكن لسوء الحظ، يمكن رؤية التلوث المنبعث من حرق الفحم بسهولة شديدة، إن لم يكن صعبًا تنفسه. وبكل تأكيد، يؤدي شح الطاقة إلى تقليل سرعة عجلة النمو الاقتصادي، الأمر الذي يسبب قلقًا حقيقيًّا.

لكن، على كل حال، كما تعلمنا من التجربة اليابانية في إمكانية الحياة، بل التطور والإنجاز حتى دون طاقة، إثر أزمة النفط التي لحقت بدول الأوبيك في

منتصف سبعينيات القرن الماضي، يمكن أن يقود شح الطاقة إلى أفكار خلاقة في المحافظة عليها. فأنت لست في حاجة لتسبح في النفط لكي تحيا حياة هنيئة. في واقع الأمر، ثمة شواهد عديدة حولنا تدل، بما لا يدع مجالًا للشك، على أن امتلاك النفط يؤدي غالبًا إلى حياة سيئة طافحة بالمشاكل والتعقيدات – انظر مثلًا إلى نيجيريا والعراق. لقد أصاب ويليام ماكدونوه (William McDonough)[10] كبد الحقيقة عندما أكد إمكانية قيادة الصين في النهاية لثورة خضراء جديدة:

بالطبع، تعيش الصين مشاكل بيئية ملحة، تضطرها بالضرورة إلى ابتكار أفكار خلاقة. ولا شك في أن يكون لبحثها عن حلول تأثير في العالم كله. مما يفتح أسواقًا واسعة لشركات طاقة وتقنية جديدة، تشكل في الوقت ذاته قاعدة صلبة لأنواع من المنتجات، الخدمات والتقنيات البيئية الذكية.

لم يوافق سكوت صمويلسن (Scott Samuelsen) مدير المركز الوطني لأبحاث الطاقة الشمسية بجامعة كاليفورنيا في إرفين، على ما ذهب إليه ويليام (William) فحسب، بل أضاف إليه. إذ يعد صمويلسن (Samuelsen) هو أول من أكد الاختراعات والابتكارات، بصرف النظر عن مدى فائدتها، فهي عامل أساس في التعطيل، وسبب مهم في خلق الفوضى والاضطراب. وهكذا الحال مع التقنيات الخضراء كالسيارات التي تعمل بالكهرباء. فعندما عرضت شركة تويوتا طرازها الأول في كاليفورنيا، حظيت بشهرة واسعة وسط المستهلكين.

لكن، لم تحظ تلك الخطوة بأي تأييد من قبل تجار السيارات وشركات النفط. وهذا أمر بدهي؛ لأن السيارات التي تعمل بالكهرباء، تحتاج إلى صيانة أقل، مقارنة بتلك التي تعمل بالبنزين أو الديزل، ولهذا سوف يخسر العاملون في بيع السيارات وقطع الغيار الكثير جدًا مما تدره عليهم تلك الصناعة من أرباح طائلة. وبالمقابل، تخسر شركات النفط الكثير من عائداتها؛ لأن أصحاب تلك السيارات الكهربائية يكتفون بتزويدها بالطاقة من بيوتهم دون الحاجة إلى



المرور بمحطات توزيع المحروقات. ولهذا اتحد الفريقان للضغط بكل ما أوتيا من قوة ضد كل الجهات التي قدمت الدعم والمساعدة لتلك التقنية الجديدة، حتى تمكنا في النهاية من هزيمتها. فاضطرت شركة تويوتا إلى سحب إنتاجها الجديد من الأسواق. أما فيما يتعلق بالصين، فالأمر جد مختلف، إذ لم تكن هناك بنية أساسية بعد لكي يتم تدميرها أو تعطيلها. فقد نجحت في خلق أرضية ثابتة لتجربة السيارات التي تعمل بالكهرباء وغيرها.

الإصلاح السياسي والتطور الاقتصادي:

نحن نؤمن قطعًا بأن التطور الاقتصادي يؤدي حتمًا إلى الإصلاح السياسي، وتأتي أفضل بينة على هذا الزعم من منطقة شرق آسيا نفسها. فانظر مثلًا إلى اليابان، كوريا الجنوبية، تايوان وجمهورية الصين الشعبية. ففي الوقت الذي نما فيه اقتصاد هذه البلدان، بدأت ظاهرتا استئثار الفئات القليلة بالسلطة والمحسوبية في الانحسار. صحيح.. لم تنحسر ظاهرة المحسوبية والمحاباة بالسرعة المطلوبة لغالبية الناس. لكن هذا لا ينفي صدق ذلك الزعم.

ربما قال قائل إن روسيا شرعت في إجراء إصلاحات سياسية، فتحسن اقتصادها، لكن مع ذلك يظل معدل العنف فيها من أعلى المستويات في العالم، ويبدو أن الرئيس فلاديمير بوتين (Vladimir Putin) ما زال يواصل تمسكه بضرورة التخلي عن السياسة القائمة على سيطرة الفرد.

يبقى السؤال الذي يجب أن تجيب عنه انتقادات منكسيم بي (Minxim Pei) وقوردون شانق (Gordon Chang) ليس عما إذا كان الفساد، المحسوبية وإسناد المهمات لأشخاص لا يتمتعون بالكفاءة المطلوبة موجودة في الصين. فلا شك في أنها كذلك، لكن السؤال المهم هنا: ما مدى وجود تلك الأمراض في المجتمع الصيني؟ فلا شك في أنها تنحسر هناك في أثناء إعداد هذا الكتاب. كما أن استمرار النمو الاقتصادي سيعمل حتمًا على تسارع وتيرة انحسارها.

تجدر الإشارة هنا إلى ضرورة اعتبار انضمام الصين إلى عضوية منظمة التجارة العالمية (WTO) مؤشرًا على صحة مسارها. ونطلب إليك، أيها القارئ العزيز، العودة والجلوس على كرسيك مرة أخرى لتأمل الوضع. (فإن كنت قرب نافذة أو ربما كنت على ارتفاع (35.000) قدم في مكان ما فوق المحيط الباسيفيكي، فضع الكتاب جانبًا لتلقي نظرة على الصورة الكبيرة بشكل تام). ومن ثم أجب عن السؤال بنفسك: هل الأمور تتحسن في الصين أم لا؟

أخيرًا، يمكن القول إن تايوان قد ساعدت في هذا كله. ليس من الناحية الاقتصادية فحسب، بل من ناحية التأثير المهم فيما يتعلق بالشركات العاملة في تجارة السيارات وقطع الغيار والصيانة وغيرها في الموطن الأم. وتذكروا أن الصين قد تعرضت من الناحية التاريخية لموجات من الوحدة والانقسام، والطريقة الوحيدة لتحقيق الوحدة، وإعادة تايوان إلى الحظيرة، هي التجارة والازدهار الاقتصادي. ولعمري هذا مشروع قد يتطلب إنجازه خمسين عامًا. ولهذا ربما حدثت موجة الانحدار التالي المرتقبة في النصف الأخير من هذا القرن.

الخلاصة:

على المدى البعيد، لن تتمثل قوة الصين الاقتصادية في تصدير المكننة إلى العالم الخارجي، بقدر ما تتمثل في خلق أسواق هائلة رائجة. ولأن قوة أمريكا الاقتصادية نابعة من تمتعها بموارد هائلة وقدرة عالية على الإنتاج، وسوق محلية ضخمة توجه دفة اقتصادها، يمكن مقارنة قدرة الصين الاقتصادية الكامنة بحالة الاقتصاد الأمريكي، الذي تتحكم فيه حاجة الاستهلاك المحلي، أكثر مما يمكن مقارنتها باقتصاد اليابان الذي يرتكز أساسًا على حجم الصادرات. فالصين ليست جنة الاقتصاد، كما أنها ليست أرض اليباب. فهي إذن بلاد فقيرة نسبيًا تمر بعملية تحول قاسية، من نظام السوق الاشتراكي إلى



نظام السوق الهجين (اشتراكي/ حر) لم يكتمل بعد، إذ لا تزال قوانين لعبته تكتب حتى الآن.

على الرغم من العقبات والعوائق التي وصفناها في هذا الجزء، فثمة أسباب كثيرة تدعونا إلى الأمل في نمو اقتصادي ثابت على المدى البعيد في الصين العظيمة.

بالطبع، لا أحد على ظهر هذه البسيطة يطيق رؤية انهيار الصين، إذ لا تقتصر مهمة التجارة على تحقيق الازدهار الاقتصادي في المنطقة فحسب، بل تتعداه لتحقيق السلام. وعليه، سنظل متمسكين بتفاؤلنا من أجل مستقبل الصين، ولن نخذلها أبدًا.



الهوامش:

1 - ويليام ج. (أوفرهولت) (William J. Overholt) صـعود الصين (The Rise of China) (نيويورك: نورتون، 1993 م).

2 - قوردون س. شـانق (Gordon C. Chang) (انهيار الصـين الوشيك) (The Coming Collapse of China) (نيويورك: دار راندوم، 2001 م).

3 - منكسـيم بـي (Minxim Pei) (The Dark Side of China›s Rise) مجلـة السياسة الخارجية، مارس – أبريل 2006 م، ص 32 – 40.

4 - ادخـل علـى موقع (Asia Week) للحصـول على آخر المعلومـات عن الدول الآسيوية: www.asiaweek.com

5 - الإكونومسـت، "How China Runs the World Economy" (كيـف توجـه الصين دفة اقتصاد العالم؟) 30 يوليو 2005 م، ص 11، 61 – 63.

6 - دون لي (Don Lee) "No Esay Answers on China Trade" (ليـس ثمـة إجابات سـهلة عن تجارة الصين) لوس أنجلوس، التايمز، 4 يونيو 2005 م، العمود الأول، العمود الثاني.

7 - بريـان بريمـتر (Brian Bremner) وكاثلين كيرويـن (Kathleen Kerwin) "Here Come Chinese Cars" (هنا تأتي السيارات الصينية) (Business-Week) 6، من يونيو 2005 م، ص 34 – 36.

8 - يجب ملاحظة مدى تغير حجم الاسـتثمارات الأمريكية الأجنبية المباشـرة من (321) بليون دولار عام 2000 م إلى (116) بليون دولار عام 2004م.

9 - ديانـا فيريـل (Diana Farrell) "India Outsmarts China" (الهنـد تبـز الصين) مجلة السياسة الخارجية، يناير – فبراير 2006 م، ص 30 – 31.

10 - ويليام مكدونوه (William McDonough) "China as a Green Lab" (الصين كمعمل أخضر) (Business Review) فبراير 2006 م، ص 38 – 39.





الفصل الرابع

امتناع الولايات الأمريكية المتحدة عن التجارة مع الصين.. الوجه الحسن الوجه السيئ والوجه القبيح

نحن نؤمن بأن أهم نوع للعلاقات الدولية هو ذلك الذي يقوم بين المديرين والشركات، ليس ذلك الذي يقوم بين السياسيين. ويعد الوضع الحالي حول مضايق تايوان أهم شاهد على زعمنا هذا، إذ ضجت الصحف به في كل من بيجينق، تايبيه وواشنطن. وقد كان الصحفيون يفتقرون إلى مزيد من الأخبار عن العلاقات التي نشأت بين الشعوب الثلاثة بفعل التجارة، فحالت بذلك دون العمليات العسكرية. وعليه، يمكن اعتبار التجارة مكونًا أساسيًّا للعلاقات الدولية والسياسية بحيث يمكن وصفها ببساطة، كخلفية موسيقية. لكن بالطبع، ربما صارت الخلفية الموسيقية أحيانًا صاخبة جدًّا.

كان توماس جيفرسون (Thomas Jefferson) أول من ابتكر استخدام العقوبات التجارية لتحقيق أغراض سياسية، عام 1807 م. وقد كانت القرود التي حاول إقناعها آنئذٍ ضخمة وعنيدة، إنجلترا وفرنسا. وكان الهدف قد حمل تلك الشعوب النزاعة للحروب على ترك السفن الأمريكية (بما فيها تلك التي تبحر ذهابًا وإيابًا بين المستعمرات) وحيدة في البحار العليا.

بسبب افتقارنا إلى الملاحة بحرية قادرة على المنافسة، كان حلم رئيسنا الثالث اللجوء لأسلوب الحظر التجاري – بدلًا من استخدام التجارة كجزرة، فخطط للتحكم في التجارة ومن ثم توظيفها كعصاة.



وعلى كل حال، بدلًا من أن تعمل سياسة جيفرسون (Jefferson) على حمل فرنسا وإنجلترا على تغيير مواقفهما السياسية، عرضت تجارة إنجلترا الجديدة للخطر. فكتبوا يشتكون:

كانت سفننا في حركة دائمة، ومجرد أن تدخل إلى المحيط؛ كانت تمخر عبابه مبحرة فتعود محملة بالبضائع؛ والآن حكم عليها بالصدأ، إذ وقعت فريسة لـ(جيفرسون) (Jefferson)، الديدان والحظر التجاري [1].

خلال خمسة عشر شهرًا انهارت فكرة الحظر التي جاء بها جيفرسون (Jefferson)، إذ ساهمت حرب 1812م، في تسوية المشاكل الناجمة عن الهجوم الإنجليزي في البحار. وكان حري بنا أن نتعلم من حماقة جيفرسون (Jeffer-son) أن العقوبات التجارية الحكومية نادرًا ما تحقق أهدافها المنشودة. لكن مع الأسف، لم نفعل. فلنتأمل معًا سجل آثار العقوبات التجارية التي فرضت خلال القرن الماضي:

في عام 1940 م، أخطرت الولايات الأمريكية المتحدة اليابان بضرورة الانسحاب من الصين، ففرضت عليها حظرًا تجاريًا حرمتها بموجبه من الحصول على الجازولين والخردة من كل أنواع المعادن. فكان هذا الإجراء عاملًا مباشرًا وسببًا أساسيا لهجوم بيرل هاربر.

منذ عام 1948 م، والدول العربية تقاطع إسرائيل، مكتفية بالتبادل التجاري مع بعضها بعضًا. لكن، لك أن تتخيل إلى أي مدى ساعدت تلك المقاطعة التجارية على تغذية الصراع في المنطقة! وعلى الرغم من كل هذا، لا تزال إسرائيل باقية.

في عام 1959 م، سيطر كاسترو (Castro) على مقاليد الحكم في كوبا، فسارعت الولايات الأمريكية المتحدة إلى فرض حظر على السكر والسجاير

الكوبيــة. لكــن كاســترو (Castro) مــا زال باقيًــا على ســدة الحكم هنــاك. وفي عام 1973م، لجــأت دول الأوبيــك إلى اســتخدام ورقــة النفــط بهــدف حمــل الولايــات الأمريكيــة المتحــدة علــى قطــع الدعم عــن إســرائيل. لكن، علــى الرغم مــن ذلك، لا تزال الدولارات الأمريكية تتدفق بسرعة شديدة إليها، والآن تتدفق إلى مصر أيضًا.

في عــام 1979م، أخطرت الولايــات الأمريكية المتحدة الاتحاد الســوفيتي بضــرورة الانســحاب من أفغانســتان. فرفض. فقاطعت أمريكا أولمبياد موسكو وحظــرت بيع الحبــوب والتقنية علــى الروس. وكانــت النتيجة: اســتمر الروس في قتل الأفغان (وبالمناســبة، واصلــوا قتل الجنود الروس أيضًــا) لعشر سنوات أخــرى. وأكثر من ذلك: قاطعوا هم والرياضــيون من حلفائهــم أولمبياد أمريكا اللاتينيــة عــام 1984م. وعلى كل حــال، لم يجد حظر التقنيــة المتقدمة أي نفع يذكر. وفي منتصــف ســبعينيات القرن المنصرم، خسرت شــركة جون (John) للمجنزرات، قســم ســان ديقو، التي كانت تعمل في مد أنابيب الغاز الطبيعي في الاتحاد السوفيتي، ملايين الدولارات بسبب إلغاء عقودها. فخسرت تلك العوائد إلى الأبد؛ لأن السوفيت علموا أنفسهم كيفية فحصها وإصلاحها بدقة متناهية. فتحولت شــركة جون (John) عام 1989م، للبحث في تطوير الأسلحة الروسية، فحصلت على كل تقنيات الحاسوب التي كانت متاحة في الغرب آنئذٍ، من أجهزة (IBM) وأجهزة (Apples) إلى أفضل الأجهزة من تايوان واليابان.

صــحيح.. ربما ســاعدت العقوبــات التجاريــة المتعددة التي فرضــت على جنوب أفريقيا في منتصــف ثمانينيات القرن الماضــي، على تســريع زوال نظام التفرقة العنصــرية. لكن، انظر إلى أي مدى غَيَّرَ الحظر التجاري الذي فرضه العالم على العراق مدة عشر سنوات، السياسة هنــاك.

قد أدى اســتغلال التجارة بوصفها ســلاحًا لقتل الأطفال، في الوقت الذي كان صدام حسين ينفق اثني عشر مليون دولار على احتفالات عيد ميلاده.

إذن، نخلص إلى أن أفضل وصفة لإحلال السلام في الشرق الأوسط (ولمحفظة دافع الضرائب أيضًا) هي تخلي جميع الأطراف عن استخدام ورقة الحظر التجاري بكل أشكاله.

على صعيد آخر، استمرت معاملتنا للصين الشيوعية بعد عام 1949م، بالطريقة نفسها تقريبًا، إذ قررنا حظرًا تجاريًا كاملًا معها حتى عام 1972م، ثم طلبنا إليها مؤخرًا إجراء تعديلات سنوية من أجل تعرفة جمركية طبيعية لممارسة التجارة؛ لكن لأن الصين بدأت تتخلى تدريجيًا عن جلد الشيوعية خلال تسعينيات القرن الماضي، تخلت أمريكا عن تلك الشروط. ليوافق الكونجرس في النهاية ورئيس الجمهورية على إقامة علاقات تجارية طبيعية دائمة مع الصين، والسماح لها بالانضمام إلى عضوية منظمة التجارة العالمية.

لكن، على الرغم من هذا التطور المثير، ثمة ثلاثة مظاهر مهمة لتنظيم التجارة الأمريكية، ما زالت تجعل المهمة صعبة لممارسة الأعمال التجارية مع الصين:

1 – القرار الخاص بحماية التجارة الخارجية ضد الفساد.
2 – ضوابط الأمن الوطني التي تحكم عملية تصدير التقنية المتقدمة للعالم الخارجي.
3 – ضوابط الهجرة والسفر.

وتمثل هذه السياسات الحكومية عائقًا أمام التبادل التجاري مع الصين، وسوف تكون محور حديثنا في هذا الفصل.

أولًا: الوجه الحسن – القرار الخاص بحماية التجارة الخارجية ضد الفساد:

تبدأ حكايتنا بمنحة خارجية لحملة سياسية في اليابان، لقد كانت سنة 1972م، سنة فاصلة في العلاقات الدولية. ففي شهر فبراير من تلك السنة،

سافر ريتشارد نيكسون (Richard Nixon) إلى الصين. فأسفرت اجتماعاته مع زو إنلي (Zhou Enlai) عن افتتاح مكاتب تجارية متبادلة، وهكذا بدأ الانفراج في العلاقات بين البلدين، وما زال قائمًا حتى اليوم.

في سبتمبر من السنة نفسها، قام رئيس الوزراء الياباني كاكوي تاناكا (Kakuei Tanaka) الذي انتخب للتو برحلة مماثلة، فدشن حقبة جديدة من العلاقات الدبلوماسية مع الصين. ولا شك في أن تلك كلها أخبار سارة وأشياء جميلة رائعة.

بعد عامين فقط من ذلك التاريخ، أُجْبِرَ الاثنان نيكسون (Nixon) وتاناكا (Tanaka) على الاستقالة عن منصبيهما في غمرة تلك الفضائح التي تورطا فيها بسبب سوء تصرفهما السياسي. فالكل يعرف فضيحة ووترقيت، ولهذا لا داعي للخوض في تفاصيلها هنا. أما في اليابان فقد قبل تاناكا (Tanaka) تبرعات لحملته الانتخابية عام 1972م، بمليوني دولار أمريكي من شركة (Lockheed). فشاع خبر الفضيحة هناك عام 1974م، فأجبر تاناكا (Tanaka) على الاستقالة من منصبه كرئيس للحكومة، فأدين أخيرًا عام 1983م بالفساد. فاشمأز الكونجرس كثيرًا من تصرف شركة (Lockheed) (ومن تصرف نيكسون "Nixon" أيضًا) فخضعت إثر ذلك (450) شركة أمريكية متعددة الجنسيات للجان تحقيق أمنية، وعليه تمت المصادقة على قانون حماية التجارة الخارجية ضد الفساد من قبل الرئيس كارتر (Carter).

يعمل الآن المديرون التنفيذيون الأمريكيون العاملون في الصين، في ضوء هذا القانون الذي تم تدشينه منذ ثلاثين عامًا.

الجذور الاجتماعية للمشكلة – مسألة ثقافية:

إن المسألة الأخلاقية لما هو صحيح أو مناسب تجعل التنفيذيين الأمريكيين أمام مأزق حقيقية وسط الرأي العام في بلادهم. وحتى داخل البلاد الواحدة،